تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

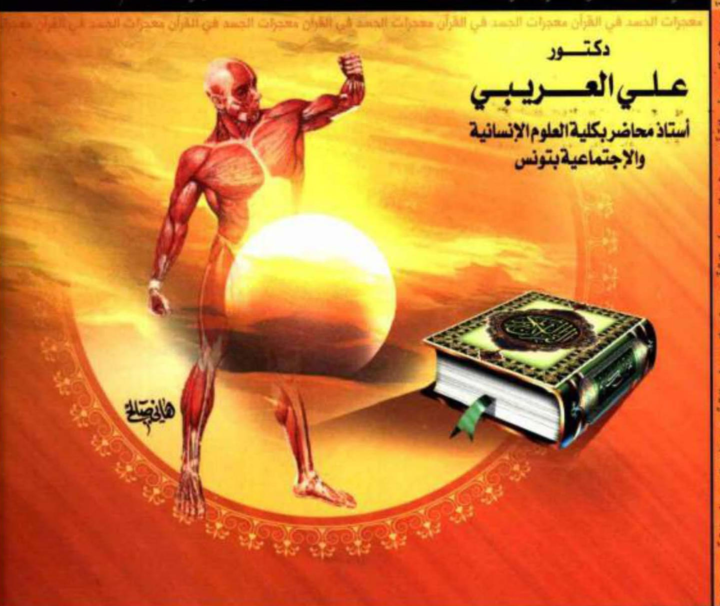
معجزات الجسد في القرآن

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ

دكتور

علي العريبي

أستاذ محاضر بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس



مكتبة جزيرة الورد

معجزات الجسد في القرآن

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

د. علي العربي

أستاذ محاضر بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : معجزات الجسد في القرآن

المؤلف : د. علي العربي

رقم الإيداع : **٩٧٥١**

الطبعة الأولى ٢٠١٢

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ١ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦٠ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_٥@yahoo.com

تمهيد

أنزل القرآن لهداية الناس إلى الطريق الأقوم، وليتذكروا أن لهم ربا خلقهم في أحسن صورة، ورزقهم القوت، وأسبغ عليهم نعمه التي لا تحصى ولا تعد. وهيأ لهم هذه الأرض يعيشون فيها ويمشون في مناكبها، وكل ما خلق الله وما أنبت، هو لفائدة الإنسان ثم الحيوان، وحتى الحيوان، وجد لخدمة الإنسان ومنفعته، باختصار فالإنسان هو خليفة الله في أرضه، أكاد أقول خلق هذا العالم من أجل أن يعيش الإنسان في أمن وسلام، ولكي يعيش كذلك، طلب منه أن يستخدم عقله وجسمه، لينتفع بها حوله في هذا الكون، ويسخره لفائدته، بواسطة هذا الجسم الذي أعد بمهارة وحكمة، فكل عضو فيه وجد ليقوم بدور معين، يجعل الإنسان متصلا بهذا الكون اتصالا وثيقا، كالسمع والبصر واليدين والرجلين واللمس والذوق، وإمام هذه الأعضاء وغيرها العقل، ونائبه اللسان، ولكي يقوم بكل هذه الأدوار على أحسن ما يرام خلق له أعضاء داخلية هدفها مواصلة الحياة، فهي تستقبل الطعام والماء، فتحوله إلى دم، به تستمر حركة القلب ونبضه، وبه تستمر الحياة.

هذا الجسم عالم متسع الأرجاء، فكل ما فيه يدل على عظمة خالقه، فيه أعضاء متنوعة، ومختلفة الأدوار، كل عضو يقوم بوظيفته بإتقان وحكمة بالغة، وللعضو الواحد إدارة خاصة، ينشط فيها عمله وموظفون، حتى يقوم هذا الغضو بمهمته على أحسن الوجوه، فالقلب واليدان والأذن والعين لها جنودها وموظفوها، كل يقوم بدوره، لا يشاركه فيه أحد، وإذا تخلف أحد الجنود أصيب العضو بالاختلال والنقص، ويسري هذا الاختلال على بقية أعضاء الجسم، بمعنى « إذا اشتكى منه - أي الجسد - عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » كما قال الرسول في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم. وهنا يكون العلاج، وتدخل الطبيب ضرورة

وواجب، ولكل عضو في الجسم تخصص، بل أكثر من تخصص، فهذا طبيب للعيون، والآخر للأذن والحنجرة والأنف، وهذا للقلب والمعدة، وهذا متخصص في أمراض النساء أو الأطفال ...إلخ .

وقد ذكر الكثير من هذه الأعضاء في القرآن، وبما أنه كتاب هداية وإرشاد، فلم يتعرض إلى وظائفها ودورها، كما تتعرض لها العلوم الطبيعية، ما عدا بعض الأعضاء التي تتحمل نصيبا كبيرا في القيام بالأعمال الدنيوية والأخروية، ومن أجلها يتعرض بقية الجسم للعقاب، أو يسلم من أن يصاب بأذى يوم القيامة، وهذه الأعضاء القيادية في الجسم هي القلب والنفس واللسان كما سنرى، وحتى اليد والرجلان لهما دور بارز في جسم الإنسان من حيث الثواب والعقاب، فالرجلان يحملان الجسم إلى مكان ما، واليد هي التي تقوم بالفعل، ويوصف هذا الفعل بالخير أو بالشر في القرآن، وحتى في بعض القوانين الوضعية.

ويمكن للباحث في كتاب الله أن يرصد مسائل مهمة تتعرض إلى خلق الإنسان الأول، وقد كان من تراب أولا، ثم أصبح عن طريق التناسل بعد ذلك ، فيتكون الجنين في الرحم، ثم يخرج من بطن أمه، فيكون طفلا ثم شابا وكهلا، وأخيرا يكون شيخا، وقد يموت أو ﴿مَن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾[1] .

وقبل أن نمر إلى جسم الإنسان من خلال القرآن الكريم ، نتعرض إلى مسألة هامة وقضية شائكة، فأما المسألة الهامة فتتعلق بتهيئة هذه الأرض بوصفها الإطار الذي يعيش فيه الإنسان معززا مكرما، وأما القضية الشائكة فتهم خلق الإنسان نفسه، هذا الكائن الذي حارت البرية فيه، وفي كيفية خلقه ومنشئه.

الأرض ملك للإنسان

نقرأ في سورة الرحمن قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴾[2] أي أنه خلقها

(١)الحج: ٥.

(٢)الرحمن: ١٠.

قصدا لتكون موطنا وسكنا للناس، وتكون ملكا لهم في حياتهم الدنيا، والملك كله لله، على ظهرها يبنون مساكنهم، وعليها يقومون بالفلاحة والزراعة، وقد يبيعون أو يشترون ما يملكون من هذه الأرض، ويتوسعون فيها ببناء المدن، وإقامة أماكن للعبادة وغيرها، وبما أن الأرض كروية الشكل لا يستطيع الإنسان أن يتحرك فيها، لو بقيت على حالها، فقد جعلها الله صالحة للتنقل والإقامة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ (١).

فقد مهد الله هذه الأرض بأن جعلها منبسطة، يسهل العيش فيها، ويمكن للإنسان أن يتحرك في جوانبها وطرقها في السهل والجبل والصحراء والغابة بفضل خالقها ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ (٢) فهي بمثابة المهد الذي يجد فيه الطفل الصغير راحته، وهي كالبساط ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ (٣) لسهولة التنقل عليها، فأصبحت مريحة تسهل المعيشة عليها ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ (٤) وهكذا جعل الله من هذه الأرض مستقرا وقرارا يطيب فيه العيش، وإن إلى حين، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٥) وقال أيضا: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ (٦).

وبعد أن سهل لهم العيش فوق هذه الأرض، وخلق لهم الهواء الذي بدونه لا يحيا الإنسان، وأوجد لهم الليل والنهار- أحدهما للراحة والسكون، والآخر للعمل والحركة والماء الذي جعل منه كل شيء حي، فكانت الثمار والفواكه وغيرها

(١)الملك:١٥.
(٢)طه:٥٣.
(٣)نوح٧ .
(٤)الذاريات: ٦٨.
(٥)البقرة: ٣٦.
(٦)غافر: ٦٤.

مما أبدع الله وصور، دعاهم إلى الإقبال على خيراته، وأخذ نصيبهم منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ (١).

وحتى السماء سخر الله ما فيها من منافع للإنسان، فمنها ينزل الغيث، الذي لا تستقيم الحياة بدونه، وفيها الكواكب والقمر والشمس، ولتصور غياب الشمس عن كوكبنا الأرضي، فماذا يحدث يا ترى ؟ لا شك أنها تتحول إلى كتلة ثلجية تنعدم فيها الحياة، وينعدم فيها وجود للإنسان والحيوان والنبات، وللسماء مآرب أخرى، ففيها اكتشفت أمواج هوائية تساعد على وسائل الاتصال، وتقرب بين الشعوب مثل الإذاعة والتلفزة والهاتف، القار منه والمحمول، وغيرها.

نعم لقد خلق الله ما في هذا الكون لفائدة الإنسان ولمصلحته، والآيات الدالة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (٢) وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (٣).

لقد مكن الله الإنسان في الأرض، وجعل له فيها معايش من طعام وشراب، ليشكر الله على نعمه، ولكن الإنسان، مع الأسف، يجازي ربه بالجحود والنكران، فقليل هم الشاكرون الحامدون، وكثيرا ما يتجاوزون الجحود إلى الفساد في الأرض، فيقتلون النفس التي حرم الله التعدي عليها إلا بالحق، ويشعلون الحروب، ويفتكون بالأبرياء، ويدمرون الحرث والزرع، خلافا لما أمر به الله ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٤) أو قوله تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾(٥) وكان يمكن أن يعيش الناس أخوة متحابين، فخالقهم واحد،

---

(١)البقرة: ١٦٨.

(٢)البقرة: ٢٩.

(٣)الجاثية: ١٣.

(٤)الأعراف: ٧٤.

(٥)الأعراف: ٥٦.

ومصيرهم واحد، وهو الموت في آخر الأمر، وقد سخر لهم خيرات الأرض وكنوزها، لا فرق بين مؤمنهم وكافرهم، ولكن قوى الشر، أو ما يسمى في القرآن بالشيطان يغر الإنسان، فيدفعه إلى ارتكاب المحرمات، ومنها الاستعلاء على أخيه الإنسان، والاعتداء عليه إلى درجة القتل، ولو قاوم الإنسان نوازع الشر المغروسة في نفسه الأمارة بالسوء، وغلب نوازع الخير، لاستقام حال الإنسان، وعاش مع أخيه الإنسان في وئام و انسجام، ولكن الأنانية وحب الجاه، وإرادة التحكم والاستحواذ على المال والانفراد بمتع الحياة ولذاتها هي التي تعمي الناس، وما أعماهم في الواقع إلا الشيطان الذي ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1] .

بل إن الشيطان يوسوس للعلماء من الناس بتغيير خلق الله، وذلك بتحويل الرجل إلى امرأة، وإفساد الفطرة السليمة، كظاهرة الاستنساخ التي يدعي أصحابها أنهم يستنسخون بشرا بالاعتماد على خلية واحدة، أي التكاثر بدون إخصاب، ويكون هذا المستنسخ متشابها مع أصل الخلية الأولى إلى أبعد حد، ولكن إن جاز الاستنساخ في عالم الحيوان فإنه لا يجوز بتاتا من الوجهة الدينية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية، ولكن ما دام الشيطان هو سيد الموقف فلم لا يأمرهم بتغيير خلق الله، ألم يعلن منذ البداية أمام الحضرة الإلهية قائلا: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[2] .

وليس من غايتنا أن نتحدث أكثر في هذا الموضوع الذي مازال في طور الافتراض والبحث، وإنما نريد أن نتعرض إلى خلق الله للإنسان الأول فوق كوكبنا.

خلق الإنسان الأول من طين

آدم هو الإنسان الأول على وجه الأرض، خلق من تراب، خلقه من يقول

(١) النساء: ١٢٤.

(٢) النساء: ١١٩.

للشيء كن فيكون، تراب أو طين أو صلصال، تحول إلى حمأ[1] مسنون[2] هكذا أراد الله أن يكون أصل الإنسان، عفونة وروائح كريهة تشمئز منها النفس، من هذا الطين الأسود المتعفن خلق الله الإنسان، فكون منه الأعضاء، وبث فيه الروح، أو نسمة الحياة، وأنشأ فيه المشاعر والأحاسيس على مختلف أنواعها، فهب واقفا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد حدثنا القرآن عن كيفية خلق الإنسان الأول، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [3] وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [4] وقال أيضا ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ [5] ومن عظمة الله وقدرته أنه ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [6] من الصلصال، وهو الطين اليابس الذي له صلصلة: أي صوت يتردد، خلق الله الإنسان ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [7]

وقال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي، وقال عنه أنه حديث حسن صحيح « إن الله عز وجل، خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والطيب والخبيث ».

ولم ينفخ الله الروح في آدم فقط، ولم يبث مختلف المشاعر والأحاسيس فحسب، وإنما غرس فيه عقلا به يعقل الأشياء كلها، وسماه القرآن لبا، واللب من كل شيء خالصه وخياره، فإذا كان لب الجوز واللوز والفستق ونحوه ما في جوفه، فإن لب

(١) هو الطين الذي أصبح أسود اللون من طول مخالطته للماء.

(٢) متغير الرائحة.

(٣) الحجر: ٢٦.

(٤) المؤمنون: ١٢.

(٥) الأنعام: ٢.

(٦) السجدة: ٧.

(٧) الرحمن: ١٤.

الإنسان عقله، وباللب أو العقل ميز الله الإنسان عن سائر خلقه، حتى الملائكة، فقد علمه الأسماء كلها: أي أنه جعله مستعدا لمعرفة خصائص الأشياء، وهذه المعرفة تساعده على الانتفاع بتلك الأشياء، والاستفادة منها، وهو ما حصل بالفعل، وقد مرت هذه المعرفة بأطوار مختلفة، ووصلت الآن إلى مرحلة متقدمة، فقد استطاع الإنسان أن يكتشف خبايا الأرض، وما زال، وأن يضبط العلاقات بينه وبين ما في هذا الكون من مخلوقات وأشياء، بفضل هذه الجوهرة الثمينة التي أهداها الله للإنسان، والتي جعلته متميزا عن سائر الموجودات، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[1] .

ومن إجلاله للإنسان وتكريمه، تعالى ذكره، أن أمر ملائكته بالسجود لآدم، فخروا لهذا المخلوق الجديد ساجدين، إلا إبليس فإنه امتنع أن يسجد له، وعصى أمر ربه، إذ كيف يسجد لمخلوق من الطين، شاهد بداية خلقه، رأى ربه، وقد مزج « التراب بالماء، فصار صلصالا من حمإ مسنون، فعفن الطين، وانبعثت له رائحة، وكان إبليس يمر عليه فيعجب، أي شيء يصير هذا الطين »[2]

ثم لما أصبح إنسانا سويا رفض أن يسجد له، وقد خلق من هذه التونة، وخلق هو من نار، فما أبعد النار عن الطين اللازب .

وإزاء عصيانه توعده الله بالعذاب والخلود في النار، وأطرده من حضرة قدسه، وطلب من ربه أن يمهله إلى يوم الوقت المعلوم، فاستجاب الله إلى طلبه، ثم أعلن أمام خالقه بكل جرأة وتحد، أنه سيعمل جاهدا على ملاحقة عباده، وإبعادهم عن طاعته بكل الوسائل المتاحة لديه، والعمل على جلبهم إلى صفه، وجرى بينه وبين

(١)البقرة: ٣١ ـ ٣٣.

(٢)أحمد بهجت: أنبياء الله ص ٣٦.

ربه الحوار التالي:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟.

- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

- ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

- ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

- ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

ـــ ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

- ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١)].

والتفت سبحانه وتعالى إلى آدم وحواء، وكانت قد خلقت من أحد أضلاع آدم، وهو نائم، ودعاهما إلى المقام بجنة الله، وقد وفر لهما ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، ونهاهما عن الاقتراب من شجرة عينها لهما، وكان إبليس قد رأى آدم وحواء يتمتعان بنعيم الجنة، فحز في نفسه أن يكون محروما منها، فقرر أن يعمل على حرمانهما من هذا النعيم الذي لا يلى، فزين لهما الأكل من تلك الشجرة التي حرمها الله عليهما، وأخذ يغريهما بالإقبال على أكل ثمرة تلك الشجرة، فأقبلا معا على القطف ثم الأكل، وإذا بآدم وزوجته يتفطنان إلى فعلتهما الشنيعة ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[(٢)] ولم ينفعهما الاعتراف بالذنب، وطلب العفو، ونزل عليهما الحكم الإلهي العادل كالصاعقة ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[(٣)].

(١)الأعراف: ١٢ ـ ١٨.

(٢)الأعراف: ٢٢.

(٣)الأعراف: ٢٥.

وعند خروج آدم وحواء من الجنة يبدأ الطور الثاني من خلق الإنسان.

خلق الإنسان من ماء مهين

وجد آدم نفسه مع حواء وحيدين، فتكونت بينهما ألفة ومحبة، ووجد فيها الأنيس الذي يبعد عنه الغربة والوحشة، وهداهما الله إلى الازدواج، فكان الإنجاب، وكان التكاثر، وكان انتشار بني آدم فوق الأرض، عن طريق هذا الماء المهين: أي المستقذر في رأي الناس، تماما كما خلق آدم من طين أسود متعفن، وإن كان أقل عفونة ونتنا من الوسط الذي خلق فيه ابنيه (قابيل وهابيل) ماء كريه الرائحة، تسبح فيه حيوانات منوية، ثم تلتقي في الرحم ببويضات الأنثى، فيتشكل منها الجنين الذي ينشأ في ظلام دامس، وبالقرب منه أنابيب بعضها لا يخلو من نتونة وقذارة، إنه عالم عجيب تنفر النفس أن تراه فما بالك بالعيش فيه، فلماذا خلق الله الإنسان من هذه المادة العفنة ؟ ولماذا يحضن في هذا الوسط المظلم القذر ؟

لا شك أن الله تعالى أراد أن ينبه الإنسان إلى منزلته وقيمته، فلا يتطاول على خالقه، ولا يتجاوز حدوده، أو يدفعه الغرور فيتكبر على عباد الله، أو ينفخه الشيطان فيمتلئ فخرا وبطرا ورياء، فإذا وصل إلى هذه الحالة كان عليه أن يتذكر معدنه، ويتساءل بينه وبين نفسه مم خلق؟ ويتذكر أكثر أنه يحمل النجاسة بين جنبيه، ويلمسها بيده كل يوم، فيدعو نفسه إن كان عاقلا إلى التواضع، وتجنب التكبر، وإن لم يتنبه إلى وضعه ، فالله قد ذكره بأصله ، أصلك أيها الإنسان ماء متخثر مستقذر، و ضع مع ماء آخر كريه الرائحة في قرار مكين ، لا يحلو فيه العيش، لو كان الجنين مدركا ، قال تعالى منبها ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [1] .

وسواء انتبه الإنسان أو لم يتنبه إلى وضعه ومنزلته فإنه ضعيف ما في ذلك شك، نعم هو قوي بعقله ومعرفته وعلمه، وحبذا لو سخرت هذه القوة لخير بني

(١) المرسلات : ٢٠ ـ ٢٣.

الإنسان، الإنسان الذي كان من المنتظر أن يأنس لأخيه الإنسان، ويجد فيه المؤنس والمساعد على قضاء العمر الأرضي، ثم المرور إلى الحياة الأخروية، التي ستكون كاملة، بل هي الحياة الحقيقية الدائمة إذ لا موت بعدها، وإذا قوبلت بالحياة الدنيا نجد النقص الواضح في كل مظاهر الحياة، نجد الظلم والغطرسة والحروب وغيرها، والإنسان الظالم لأخيه الإنسان هو نفسه خلقه الله ضعيفا، ومع ذلك يوسوس له الشيطان بأنه قوي وعظيم، وعظمته وقوته لا تبرز إلا في الاعتداء على الغير والتعدي عليه، وإذا علمنا من خلال التاريخ، وعرفنا بالمشاهدة والتجربة أن الحياة الدنيوية كلها نقص فادح، كان علينا أن نتيقن أنه توجد حياة كاملة فيها يتجلى الكمال في كل شيء، وأن هذا الكمال المطلق لا يمكن أن يقع في هذه الحياة الدنيا ما دامت نوازع الشر متحكمة في نفوس البشر، وأنه من المستحيل أن يتبدل الإنسان مهما طال به الزمن، وبما أنه مجبول على الشر فلا بد أن نجزم بوجود حياة أخرى يسود فيها العدل، والعدل الإلهي فقط، وفي هذه الحياة الأخرى يكون الإنصاف الحق، وتعود الحقوق إلى أصحابها، ويعاقب الظالم، ويقتص منه، وتصفو الحياة لبني البشر، فيرددون مع القرآن: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

هكذا كان الطور الثاني من خلق الإنسان، نطفة أو قطرة، وهي التي يسميها القرآن بالسلالة، هذه القطرة انتزعت من باقي المني، فكانت عبارة عن سهم انغرس في البويضة، ومنها بدأ تشكيل الجنين، كان ذلك بعد خلق آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢) وأصل ذلك كله التراب أو الطين اللازب المتماسك، الذي هو وسط بين السيولة والصلابة، والماء ضروري في خلق الإنسان في الحالتين، فهو آسن ومستقذر في الطورين، ويبقى التراب أو الأرض هي أم الإنسان، فعلى ظهرها يحيا، وفي أعماقها يلحد، ثم على سطحها يبعث من جديد ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ

(١) النحل: ٣٠.

(٢) السجدة: ٨.

وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[1] .

خلق الإنسان إذن من طين وتراب وماء، ثم من نطفة وقطرة كريهة الرائحة، يتحدث عنها القرآن بكل دقة ويسر، كما لو كنا نشاهدها أمام أعيننا، ونحن نؤمن بما ورد في القرآن عن خلق الإنسان إيمانا جازما، أما بالنسبة لمن لا يؤمن بالقرآن، ولا بالذي أنزل القرآن، والذي أنزل عليه القرآن، فله أن يقول ما يريد في خصوص خلق ﴿ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ وله أن يكون هذا الخلق قضية شائكة لديه، كما ذكرنا أعلاه.

نظرية داروين

تنفي نظرية داروين أن يكون أصل البشر هو آدم « وإنما تفرع الناس على زعمه من سلالات أخرى، وانحدروا من أصل آخر يختلف عن أصل آدم، إنه يعتقد بأن الإنسان بدأت حياته بجرثومة صغيرة، ظهرت على سطح الماء، ثم تحولت إلى حيوان صغير، ثم تدرج هذا الحيوان فأصبح ضفدعا، فسمكة، فقردا، ثم ترقى هذا القرد، وتمدن فصار إنسانا، فالإنسان في نظره قرد متمدن، وقد استطاع ذلك القرد بعبقريته ونبوغه أن يتطور ويتغير، فيصبح إنسانا ذكيا بعد أن كان قردا غبيا »[2] .

يعني أن أصل الإنسان هو قرد من فصيلة الشمبانزي الشبيه بالإنسان، وليس هو آدم، وقد وقع الرد على هذه النظرية في كثير من المقالات والكتب، وتم دحضها من قبل العلماء في الشرق والغرب .

وليس من غايتنا أن نتوسع في عرض هذه الردود، وإنما هي إشارات سريعة، فقد تجاوز العلم هذه النظرية، وأصبحت في عداد التاريخ، بعد أن أبطلها علماء أفذاذ في الغرب مثل كريس موريسون في كتابه (العلم يدعو للإيمان) و كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) وهو لمجموعة من العلماء المتخصصين في العلوم الطبيعية

(١) طه: ٥٥.

(٢) محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء ص١٢٦ ــ ١٢٧.

« وكلا الكتابين يهدف إلى إثبات وجود المدبر الصانع الحكيم، ويرد على القائلين بأن الطبيعة هي التي أوجدت هذا الكون وهذه الحياة »[1] وقد تبين لبعض العلماء الألمان « إن القرد إنسان متقهقر، وليس الإنسان قردا مرتقيا، ونظريته التي يقول بها عكس نظرية داروين وأتباعه، وقد جعل أدلة داروين وبراهينه أدلة وبراهين على صحة نظريته »[2] .

أما الكتاب العرب فقد تصدوا لهذه النظرية، محاولين نسفها وإضعاف أمرها، ومن هؤلاء الكتاب نذكر حليم عطية في كتابه (تصدع مذهب داروين والإثبات العلمي لعقيدة الخلق) وقد جاء في كتابه مايلي: « كيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم، وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل، والدب، والنمر، وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ ولو حدث شيء من التطور والارتقاء ـ حسب ما يدعي داروين ـ للزم أن تتطور القردة الموجودة في زماننا ، وتترقى كما ترقى أسلافها من قبل ، وكما تمدنوا، فأصبحوا بشرا، بعد أن كانوا قردة ؟ وعلى زعم داروين هل يمكن أن يصير البرغوث فيلا، وأن تنقلب النملة نعجة، ويصبح الهر أسدا، بمر القرون، وكر الدهور » [3] .

ويذهب عبد الوهاب النجار إلى أن علماء الإسلام « يوجبون ما أوجبه العقل، ويحيلون ما أحاله، ويجيزون ما أجازه، ومن صريح القرآن فيما لا يعارض العقل ولا يصادمه، فإذا كانت عبارة القرآن تخالف مقطوعا به عقلا، وجب تأويل نص القرآن ليطابق العقل، وقد جاء في القرآن بأن الله قد خلق شخصا اسمه آدم وزوجه حواء، وأنهما أصل النوع الإنساني، وأنه خلق آدم من الطين، ونفخ فيه من روحه، وجعله بشرا، فهذا القول عندنا صريح، لا يعدل عنه إلى تأويله، إلا إذا قامت الأدلة التي لا ترد على نظرية داروين، وأن الإنسان ليس أصلا بنفسه، بل جنس أو نوع مشتق من

(١)نفس المرجع ص ١٢٩.

(٢)عبد الوهاب النجار -قصص الأنبياء ص ٢٩.

(٣)الصابوني: مرجع مذكور ص ١٢٨.

غيره، إذا صارت أدلة داروين بديهية، في حكم السماء فوقنا والأرض تحتنا، وجب أن نسلم بها، وأن نلجأ إلى تأويل نصوص القرآن، بما لا يخالف الواقع ، ولكن نظرية داروين لم تبلغ من المتانة هذا الحد الذي يجعلها أمرا قطعيا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[١] .

والنظرية في العادة لا تبلغ مستوى الحقيقة العلمية، وتبقى بين أخذ ورد، إلى أن يتجاوزها العلم، وتبقى نظرية داروين محاولة جادة لدى علماء الأنروبولوجيا (علم الإنسان) فقد بين في كتابه أصل الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعي، وحفظ السلالات المفضلة في التناحر على البقاء،وأثر العوامل الطبيعبة التي يؤدي فعلها إلى التطور ونشوء الأنواع، وحددها في خمسة أنواع هي: « الوراثة والتحول والتناحر والبقاء للأصلح، فالوراثة تحدد المشابهة، فالسنانير لا تلد كلابا، وبالرغم من وجود تشابه بين أفراد كل نوع، إلا أنه لا يوجد تماثل بينها، أي لا تكون نسخة مطابقة لأصولها، هذا وبينما الطبيعة تسرف في الإيجاد (التوالد) فهي أيضا تسرف في الإفناء، ومن هنا ينشأ التناحر على البقاء، والقاعدة هي أن البقاء للأصلح، بمعنى أن الكائنات التي تتزود من بقائها بقوة أكبر، أو حيلة أذكى، أو تكون أكثر قدرة على مقاومة أفاعيل الطبيعة، تكون أكثر قابلية للبقاء، وإعقاب نسل فيها صفاتها التي مكثت لها في الحياة »[٢] « وعلى حد تعبير داروين، نفسه فإن هناك عظمة وجلالا في عملية التطور، والانتخاب الطبيعي، فمن تلك البدايات المتناهية في البساطة تطورت، وما زالت تتطور أنواع لا حصر لها غاية في الجمال والإبداع »[٣] .

ويبدو أن داروين أغرته فكرة التطور، وأصل الأنواع في عالم الحيوان، خاصة، وقد استقبلها العلماء بالترحاب، فأراد أن يطبقها على الإنسان، ليصل في آخر الأمر إلى « أن الإنسان قد نشأ من صورة دنيا، هي أقرب إلى القردة العليا، منها إلى أية

(١)النجار: الرجع المذكور أعلاه ص ٢٨.

(٢)حسن فهيم: قصة الأنروبولوجيا ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٣)نفس المرجع ص ١٢٣.

صورة أخرى من صورة الحيوانات الأخرى، وليس معنى هذا أن الإنسان ينحدر أصلا من القردة العليا، ولكنه يشترك معها في أسلاف بعيدة تنتمي إلى رتبة الرئيسيات »[1] .

بمعنى أن الإنسان لم يكن من نسل آدم، وإنما تكون نتيجة تفاعلات كيميائية، ثم ظهرت جرثومة صغيرة فوق سطح الماء، ومن هذه الجرثومة بدأ الإنسان، ويشترك الشمبانزي في هذه البداية «وهكذا جعل داروين نسبنا متصلا بالحيوان، وعشيرتنا منحدرة من الضفادع والفئران، وجدنا هو الشمبانزي، لأنه أقرب القردة شبها بالإنسان »[2] .

وواضح أن داروين ينفي وجود الخالق، جل وعلا، ويعتقد أن الطبيعة هي التي خلقت هذا العالم، وخلقت بالتالي الإنسان، هذا الذي خلقه الله وكرمه، بأن رفعه على الملائكة المقربين، وقال عنه القرآن ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3] وقال أيضا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[4] .

ويعني بالتقويم: اعتدال القامة، وجمال الصورة، والتنسيق بين أعضاء الجسم، ودقة الصنع، واستواء الخلقة، وقد فضله على الحيوانات، ومنها القرد، بالعقل والإرادة، والتعبير بالكلام، هذا بالنسبة للجانب التاريخي لخلق الإنسان، فهل تغير خلق الإنسان عما كان عليه يوم صور الله قابيل وهابيل في بطن حواء ؟

خلق الإنسان في الأرحام وأطواره

لقد استمر خلق الإنسان، وبقي على حاله، كما كان في عهد آدم وحواء، لم يتغير شيء البتة، ولن يتغير منه شيء في المستقبل، فتلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) الصابوني: مرجع سبق ذكره ص ١٢٧.

(٣) التين: ٤.

(٤) التغابن: ٣.

أو تطورا وتحويلا ، فقد شاءت حكمة الله أن يخلق آدم من طين، ثم ابتداء من آدم وحواء يصبح الخلق عن طريق النطفة، وهي عبارة عن حيوان منوي كان كامنا في خصية الرجل، يلتقي بنطفة أو بويضة كانت كامنة في مبيض المرأة في الرحم، أو القرار المكين، كما يسميه القرآن، لأنه مستقر حصين محاط بصندوق من عظام الظهر والجنين وغيرهما، وباتحاد النطفتين تتكون خلية واحدة مجموعها معا (٤٨) كروموزوم، أي أن النطفة الذكورية (٢٤) كرروموزوم والنطفة الأنثوية (٢٤) كروموزوم، ثم تتحول الخلية إلى علقة، وهي القطعة المتماسكة من الدم، تتعلق بجدار الرحم، ثم تصبح قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ، وبعدها تكون العظام التي يكسوها جلت حكمته باللحم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[1] .

وفي معرض الرد على المكذبين بالبعث، يذكر القرآن بكيفية خلقهم أولا، وإعادتهم يوم القيامة، كما كانوا في الدنيا،وهو أهون عليه وأسهل، من ذلك الخلق الذي وقع في بطون أمهاتهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[2] .

• تأمل كيف تتحول تلك النطفة المنوية بالغذاء السابح في دماء الأم إلى إنسان كامل التصوير والتكوين والتركيب، فجزء من ذلك الغذاء يكون يدا، وجزء مماثل يكون اليد الأخرى، وجزء يكون القدم، وجزء يكون القدم المساوية الأخرى، وجزء يكون العين، وجزء يكون العين المساوية الأخرى، وجزء يكون الرئة، وجزء

(١)المؤمنون: ١٢ ــ ١٤.

(٢)الحج:٥.

يكون الرئة المماثلة الأخرى، وجزء يكون القلب، وجزء يكون الجمجمة، وجزء يكون الأمعاء، وجزء يكون المعدة، وجزء يكون الكبد، وجزء يكون العظام، وجزء يكون اللحم، وجزء يكون الجلد وهكذا»[1] .

هذه المعلومات الدقيقة عن مراحل تكوين الجنين التي توصل إليها العلم في العصر الحديث من أين أخذها محمد بن عبد الله ؟ يستحيل على العقل أن يصدق أن محمدا توصل إليها لفرط ذكائه أو عبقريته، ولكن العقل الحصيف يذهب رأسا إلى أن هذه الدقة في الحديث عن مراحل خلق الجنين لا تكون إلا من الله الذي ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [2] وأنه أوحى إلى الرسول بكل هذه المعلومات في القرآن الكريم ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [3] .

ثم يهبط هذا المولود إلى عالم الناس، فيكون طفلا، قال تعالى : ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [4] والطفل أنثى أو ذكر، هو الولد حتى البلوغ، والطفل عادة في هذه السن لا يميز لصغره بين عورات النساء وغيرهن، فإذا بلغ سن الرشد كان على أبويه أن يعلماه الاستئذان عند الدخول إلى الأماكن والأوقات التي يتخفف فيها الرجال والنساء من الثياب، ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[5] وهذه أخلاق الإسلام، غرس الحياء في نفس الطفل منذ نعومة أظفاره.

مراحل عمر الإنسان بعد خروجه من بطن أمه لم يهملها القرآن، فبعد مرحلة الطفولة ذكر مرحلة الشباب، وسماها بالأشد، ثم ذكر سن الشيخوخة للنساء

(١)عبد المجيد الزنداني(بالاشتراك) : كتاب توحيد الخالق ج ٢ ص ١٦٩.

(٢)طه : ٥٠.

(٣)الفرقان: ٦.

(٤)الحج: ٥.

(٥)النور:٥٩.

والرجال ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾(1) .

وقال أيضا ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾(2) .

وذكر عجوز لوط التي كانت في الغابرين الهالكين، يوم دمر الله مساكن قوم لوط، وقضى عليهم قضاء مبرما، جزاء اقترافهم الفحشاء وإتيان المنكر، ويقابلها سارة زوجة إبراهيم التي تعجبت من إنجابها البنين وهي في سن التسعين، وزوجها في سن المائة ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾(3)

هذا الإنسان الذي سواه الله وأحسن تصويره، وأبدع في تكوينه يهمنا في المرحلة الأولى أن نلم بأعضاء جسمه المذكورة في القرآن، ونقف عند بعض الأعضاء أو الحواس الهامة في هذا الجسم، بادئين بالرأس حتى القدمين، مع العلم أننا لا نتناول هذه الأعضاء، كما تناولتها العلوم الطبيعية، إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وإنما هو عرض يهتم بالجانب اللغوي أولا، ثم الناحية العلمية إن أمكن، لنلمس مدى قدرة الله الفائقة على خلق هذا الكائن العجيب، الذي كان من الممكن أن يعبد الله عبادة خالصة ويشكره على نعمه التي لا تحصى ولا تعد، ولكنه يتحول إلى خصم لدود، فينكر وجود الله، ويغتر بعقله، فيسمح لنفسه بالتربع على عرش الكون، ثم نتعرض في مرحلة موالية إلى أبعاد أخرى في جسم الإنسان، لا ترى ولا تلمس، وهي عصية على الفهم، رغم أنها من مكونات جسم الإنسان.

وقبل أن نمر إلى الرأس، نشير إلى أن القرآن ذكر الإطار، أو الهيكل العظمي، الذي ستحشى فيه هذه الأعضاء أو الحواس، نعني بذلك الجسد الذي ذكره القرآن مرتين في صيغة المفرد، الأولى هي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾(4) يعني أن جميع الأنبياء لم يكونوا (مجرد جسد يعيش بلا طعام

(1) غافر: 67.

(2) الروم: 54.

(3) هود: 72.

(4) الأنبياء: 8.

كالملائكة) وقد جاءت هذه الآية في سياق الرد على المشركين، الذين كانوا يعتقدون أن الرسول لا بد أن يكون من طينة الملائكة، وأن محمدا ﷺ لم يكن كذلك، فهو إذن ليس بنبي، وقد دعاهم القرآن أن يسألوا أهل الكتب السابقة، هل كان أنبياؤهم من الملائكة أم من البشر؟ أم أنهم بشر يأكلون الطعام، ويمرضون، ثم يموتون كبقية الناس ؟

أما الآية الثانية، فهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[1]

ومعنى الآية، كما ثبت في الصحيح« أن سليمان عليه السلام قال : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، تأتي كل واحدة بفارس، يقاتل في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فلم تلد منهم إلا امرأة واحدة، ولدت نصف إنسان ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ والجسد هو نصف الإنسان الذي ولدته امرأته ﴿ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه »[2] ويقال إن : المراد به (الكرسي) هنا عرش الملك الذي كان يجلس عليه، و«جسدا » أي جسما لا روح فيه ولا قوة، قالوا المراد بهذا الجسد، وند لداود كان فاسدا، واغتصب الملك مدة قصيرة، وثار عليه الشعب وقتله، ورجع الملك لسليمان فقوله ﴿ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي «ثم رجع العرش لسليمان »[3] وللآية تفاسير أخرى، يمكن الرجوع إليها في كتب التفسير، وعلى كل، فإن لفظ الجسد في الآيتين السابقتين يعني هيكلا ماديا، لا روح فيه، وكذلك الآيتين اللتين تحدث فيهما القرآن عن عجل بني إسرائيل الذي صنع من ذهب، فكان له خوار، كخوار العجل[4] .

ونجد نفس المعنى، وحتى اللفظ تقريبا، كلمة الجسم، والجسم ما له طول وعرض وعمق، والجسم أيضا كل شخص يدرك من الإنسان والحيوان، والأجسام

(١)ص: ٣٤.

(٢)الأشقر: زبدة التفسير ص ٦٠١.

(٣)انظر عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص ٦٠١.

(٤)انظر سورة طه: ٨٨.

تتناهى في الكبر، كما تتناهى في الصغر، فتصبح جسيمات ، وفي بعض الأحيان لا ترى بالعين المجردة، وتختلف الأجسام البشرية قوة وضعفا، فطالوت أحد قادة بني إسرائيل العسكريين زاده الله ﴿بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾[1] فكان قويا في دينه وبدنه، وبالعكس فإن أجسام المنافقين في عهد البعثة، عندما تراهم تعجبك هيئاتهم ومناظرهم، لما فيها من الرونق والجمال، ولكنهم من حيث الفهم والدين كالخشب التي يستندون إليها، عند جلوسهم، فهي خالية من الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾[2] فالعبرة ليست في نضارة الوجوه، وقوة البدن، وإنما العبرة في صفاء القلوب ونقاوتها، ومدى خوفها من الله، والتقرب إليه بالشكر والعبادة، كما سنرى فيما بعد « فالله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم »(رواه مسلم).

فلننظر إلى محتويات جسم الإنسان، وما اشتمل عليه من أعضاء ، تبرهن على صنع الباري، إذا عن له أن يخلق، وتدل على عظمته إذا أراد أن يقول للشيء كن فيكون، هذا الجسم أو الهيكل العظمي، وما احتوى عليه من لحم وأجهزة نشيطة، لف بجلد، والجلد هو غشاء الجسم: أي غطاؤه، وهو آلة حس، يميز بها الإنسان بين الشيء الناعم، والشيء الخشن،ويفرق به بين الحار والبارد، وبين الشيء الثقيل والخفيف، فالجلد كتلة من الإحساس تحيط بالجسم، وتجعله في حيطة وحذر مما يقع حوله، بالإضافة إلى أعضاء أخرى كالأذن والعين وغيرهما، ولمكانة الجلد بين الأعضاء، يشهد يوم القيامة على أعمال الإنسان، كما تشهد بقية الأعضاء، على ما ارتكبه الإنسان من عصيان، فعندما يقدمون إلى النار يشهد ﴿عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ

(١)البقرة:٢٤٧.

(٢)المنافقون: ٤.

أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ (١) أي بما كانوا يفعلون من المعاصي، وبتكذيبهم للرسول وللقرآن، بل ويصدون الناس عن الإيمان بما جاء به الرسول ، من دعوة إلى نبذ الشرك، وترك عبادة الأصنام، هؤلاء تحرق جلودهم حتى اللحم، فإذا وصلت النار إلى اللحم، واللحم لا يتألم ولا يحس بالنار، بدلهم الله جلودا جديدة، حتى يحسوا بالألم من جديد، وهكذا .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ (٢) وأكثر من ذلك بصب على جلودهم ماء حارا فيذوب، ولا يبقى له أثر، كما يذوب ما في بطونهم من أمعاء وأحشاء، كما جاء في القرآن ﴿ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴾ (٣) .

وبالعكس فإن جلود المؤمنين تقشعر خوفا وهلعا،عند سماع آيات القرآن التي تتحدث عن العذاب الذي يلاقيه العصاة يوم القيامة، ثم تلين جلودهم لذكر الله ورحمته وثوابه، فهم بين خوف ورجاء، وتلك هي صفة المؤمن الحق، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ (٤) .

سألت عائشة رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ (٥) قالت عائشة: الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، وهم يخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك يسارعون في الخيرات).

(١)فصلت: ٢٠ ـ ٢٢.

(٢)النساء: ٥٦.

(٣)الحج: ٢٠.

(٤)الزمر: ٢٣.

(٥)المؤمنون: ٦٠.

يلي الجلد اللحم ، وهو جزء عضلي رخو بين الجلد والعظم ، وقد ورد في القرآن مرتين في معناه الحقيقي، أي اللحم الذي يكون بين الجلد والعظم، ومرة في غير معناه المعروف ، فعندما استبعد عزير أحد أنبياء بني إسرائيل إحياء الموتى، وهو يمر على قرية تهدمت، ومات سكانها، فأماته الله مائة عام مع حماره ، ثم أراه عيانا كيف يحيي الله الموتى، فأول ما خلق الله عيناه ، فجعل ينظر إلى عظامه كيف ينضم بعضها إلى بعض ، ثم كسيت لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، ثم قال عزير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] .

قال تعالى في نفس الآية: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ وفي الآية الثانية، وفيها بين سبحانه وتعالى، كيف يصور الله الإنسان، وهو في الأرحام ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾[2] .

أما الآية التي ذكر فيها اللحم، في غير معناه الحقيقي ، ففيها ينهى الله عن الاغتياب، وذكر الإنسان أخيه المسلم بما يكره، فاغتيابه بمثابة أكل لحمه بعد مماته، فقد « مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، فلا يستطيع الدفاع عن نفسه ، كالميت إذا قطع لحمه وأكله ، أما الحاضر فقد يستطيع الدفاع عن نفسه قالة السوء »[3] .

ولقد أعطت العظام على مختلف أنواعها وأحجامها شكلا رائعا لجسم الإنسان، فزادت في بهائه وجماله، ولكي يكون الجسم متناسقا كسيت العظام باللحم، فأصبح أكثر روعة، فتبارك الله أحسن الخالقين، والعظام كانت عبارة عن مضغة ، لينة ثم تصبح شيئا فشيئا يابسة وقوية، وتشتد قوة بعد ذلك ، ومع التقدم في السن ، تصاب بالضعف والوهن ، وقد اشتكى زكريا من ضعفه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي

(١)البقرة : ٢٥٩.

(٢)المؤمنون: ١٤.

(٣)الأشقر : زبدة التفسير ص ٦٨٦.

وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [1] .

وعندما يموت الإنسان تتحلل العظام في التراب بمرور الزمن ، ولا يبقى لها من أثر إلا عجب الذنب ، وعندما أعلم الرسول قومه بأن الله سيبعث الناس بأجسامهم التي كانوا عليها في الدنيا لم يصدقوه، وأخذوا يسخرون منه ويضحكون ، وردد القرآن مقالتهم في كثير من الآيات ، وتتشابه هذه الآيات في التكذيب والسخرية ، نذكر منها قوله تعالى : ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [2] .

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ [3] .

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [4] أي إذا بلغت العظام هذه المرحلة من البلى، وأصبحت جوفاء تصفر فيها الريح، يستحيل بعثها من جديد، فإذا ردت، كما قال محمد ، فهي رجعة يخسر فيها المشركون بما يصيبهم، مما يقوله محمد ، والخسارة حاصلة بالنسبة لهؤلاء المكذبين الذين صعب عليهم أن يقبلوا بعث الإنسان من جديد، ولو دروا لعلموا أن خلقهم في الدنيا أهون على الله من بعثهم ، ولم تقبل عقولهم كذلك أن يجمع الله العظام التي تبعثرت، وتفرقت في بطون السباع والطيور وأعماق البحار، وقد جاء الرد الحاسم في هذه الآية ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [5] وسنعود إلى مسألة البنان، عندما نتحدث عن أجزاء اليد فيما يأتي:

ولنبدأ بالرأس، سيد الجسم والبدن.

---

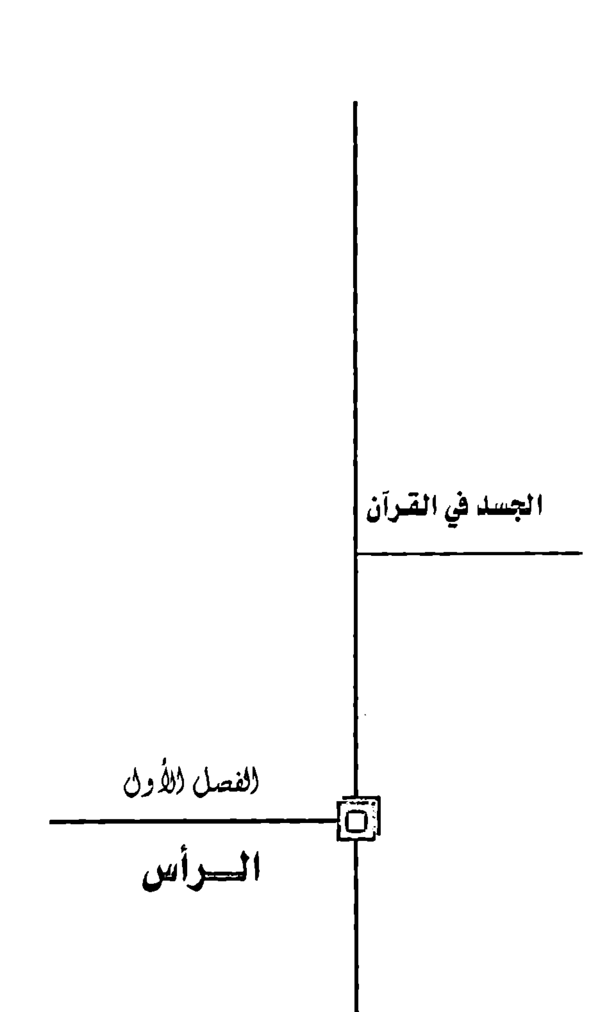
(١)مريم : ٤.

(٢)الإسراء : ٤٩.

(٣)المؤمنون : ٣٥.

(٤)النازعات : ١١.

(٥)الإنسان : ٣، ٤.


الجسد في القرآن
الفصل الأول
الــرأس

الرأس من كل شيء أعلاه حسا ومعنى، تقول رأس الجبل، ورأس القوم: أي سيدهم، ورأس السنة والشهر: أي أول يوم منهما، و للجاحظ وصف رائع للرأس، يقول: «الرأس سيد البدن، وفيه الدماغ، وهو معدن العمل، ومنه يتفرق العصب الذي فيه الحس، وفيه الدماغ، وهو معدن العمل(...) ولولا أن العقل في الرأس لما ذهب العقل من الضربة تصيبه، وفي الرأس الحواس الخمسة (و) الناس لم يقولوا هذا رأس الأمر، وفلان رأس الكتيبة، وهو رأس القوم، وهم رؤوس الناس وخراطيمهم وأنفهم، ويشتقوا من الرأس الرئاسة والرئيس، وقد رأس القوم فلان، إلا والرأس هو المثل، وهو المقدم»[1] .

نعم الرأس «سيد البدن» إذ هو ينطوي على الدماغ، وفي الدماغ سيالات عصبية، وهذه السيالات العصبية تقوم بأدوار مختلفة، وتتفرع على البدن كله، وتعود في عملها إلى مركز العمل، وهو الدماغ، فهو الذي يصدرالأوامربسرعة فائقة، فيكون الشعور بالألم أو باللذة، أو بالحرارة والبرودة، وغيرها من المشاعر والأحاسيس التي لاحد لها، هذا بالنسبة للمكونات الداخلية، أما المظاهر الخارجية فنجد حاسة البصر (العين) وحاسة السمع (الأذن) وحاسة الشم (الأنف) وحاسة الذوق (اللسان) والشفتين والأسنان واللحية والجبهة، وغيرها، وهو ما سنذكره لاحقا، ودائما من خلال القرآن .

الرأس من الأعضاء التي يشملها الوضوء،نعني الوضوء للصلاة، وقد « اتفق العلماء على أن مسح الرأس من فرائض الوضوء، واختلفوا في القدر المجزئ منه ، وأصل الاختلاف في الاشتراك الذي في الباء في كلام العرب[2] وذلك أنها مرة تكون زائدة، ومرة تدل على التبعيض، فمن رآها زائدة أوجب مسح الرأس كله، ومعنى الزائدة هاهنا كونها مؤكدة، ومن رآها مبعضة أوجب مسح بعضه»[3] .

(١)الجاحظ : كتاب البخلاء ص ٩١ ـ ٩٢ ط دار الفكر بيروت دون تاريخ.

(٢)في قوله تعالى:﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾[المائدة:٦].

(٣)ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج ١ ص ٨ ـ ٩.

وعند فقهاء المالكية « يجب مسح جميع الرأس من منابت الشعر المعتاد من المقدم إلى نقرة القفا، مع مسح شعر الصدغين، مما فوق العظم الناتئ في الوجه، ويدخل في مسح الرأس البياض الذي فوق وتدي الأذن، كما يجب مسح ما استرخى من الشعر، ولو طال جدا، وليس على الماسح ـ سواء كان ذكرا أو أنثى ـ أن ينقض المضفور، ولو اشتد الضفر، إلا إذا كان بخيوط كثيرة فينقض، ويغتفر الخيطان، والمسح على حائل كالحنا »[1] ورد مسح الرأس سنة بشرط أن يبقى بلل من أثر مسح الرأس، فإن لم يبق سقطت سنة الرد، وتمسح المرأة مقدم رأسها، وهو ما كانت تفعله السيدة عائشة، ويسمح للرجل أن لا يقوم بالرد، إذا خاف من انتفاش شعره، ومن يحلق رأسه في الحج، وهو محرم، وحلق رأسه قبل القيام بالهدي، بالنسبة لمن عليه هدي فعليه فدية، تتمثل في إطعام ستة مساكين، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[2] وتحليق الشعر وتقصيره، يتم بعد رمي جمرة العقبة يوم العيد.

ويبقى الرأس هو الرأس في اليقظة والمنام، فخباز الملك، وقد رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه، فكان تعبير يوسف عليه السلام « وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه »[3] وكان الأمر كما قال يوسف، كما سنرى فيما يأتي.

و يستعمل القرآن الرأس في غير معناه الحقيقي ، فعندما يضاف إلى لفظ المال، يدل على جملة المال التي تستثمر في عمل ما، وقد حرم القرآن الربا الذي يستغل فيه صاحب المال المحتاج والمسكين، فيؤخره ويزيده، هذا الاستغلال حرمه الإسلام، ودعا المؤمنين إلى أخذ رؤوس أموالهم، إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فقال

(١) محمد العربي القروي : الخلاصة الفقهية على مذهب السادة المالكية ص ٨.

(٢) البقرة: ١٩٦.

(٣) يوسف: ٤١.

لهم: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[1].

والرأس من أجزاء الجسم التي تتعرض يوم القيامة إلى العذاب، ومن الذين تتعذب رؤوسهم السفهاء في عهد البعثة، ومن كان على شاكلتهم في كل عهد، فقد كانوا يكذبون بالبعث، وعندما يخبرهم الرسول بأن البعث آت لا محالة ينغضون إليه رؤوسهم أي يحركونها استهزاء وتعجبا ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[2].

وكان المنافقون، عندما ينصحون بالذهاب إلى الرسول، ليستغفر لهم، لووا رؤوسهم، استهزاء من المتكلم، وإعراضا عن كلامه، لأنهم مصممون على الكفر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾[3] فقد كانوا مثل قوم نوح مصرين على الكفر، يظهر ذلك من شكوى نوح من قومه: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾[4].

هؤلاء الذين يلوون رؤوسهم وينغضونها، استهزاء وتعجبا وإصرارا على الكفر بما جاء به القرآن من بعث ونشور، سينكسون رؤوسهم يوم القيامة، وتطأطأ حياء وندما، على ما فرطوا في جنب الله، وما أظهروه من عصيان وشرك في الدنيا، وأمام ربهم تظهر لهم الحقيقة كاملة، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا، ليصدقوا بما جاء به محمد من دعوة إلى نبذ الشرك، والإيمان بالله واحدا لا شريك له، ولكن أنى لهم الرجوع إلى الدنيا، فقد فات الأوان، وهاهم يسرعون، وقد رفعوا رؤوسهم إلى السماء، ينظرون وهم في فزع وذل، لا ينظر بعضهم إلى بعض، ولا يحركون جفونهم من جراء الهول الذي يشاهدون، وليست لهم عقول يفكرون بها من الهلع والدهشة

(١) البقرة: ٢٧٩.

(٢) الإسراء: ٥١.

(٣) المنافقون: ٥.

(٤) نوح: ٧

التي أصيبوا بها ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[1].

وجاء الحساب والعذاب، وأول ما يبدأ به هو الطعام الكريه الذي لا يغني من جوع، ثم يصب عليهم الماء الحار، الذي يشوي وجوههم ورؤوسهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾[2].

هذا هو مآل عبدة الأصنام، المصرين على تكذيبهم للأنبياء، وإنكارهم للبعث والحساب، ومنهم قوم إبراهيم عليه السلام، فقد دخل على أصنام القوم، في غفلة منهم، وأخذ يحطمها، ولم يبق منها إلا كبير الأصنام عندهم، ولما سألوا إبراهيم عمن فعل هذا بآلهتهم ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[3] أي أنهم« الظالمون لأنفسهم بعبادة هذه الجمادات، وليس الظالم هو ذلك الذي كسر هذه الأشياء التي يسمونها آلهة »[4] لقد تبين لهم أنهم على خطأ، كيف يعبدون أحجارا جامدة، لا ترى، ولا تسمع، ولا تتكلم، ولا تضر ولا تنفع، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى غيهم وضلالهم وعنادهم، وقالوا لإبراهيم إن النطق ليس من عادة هذه الأوثان التي بها يتمسحون ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾[5] وفي الرأس يذكر القرآن الأجزاء التالية:

١) الشعر

هل نجد الشعر (بتشديد الشين وفتحها) في القرآن؟ لم يذكر القرآن الشعر،

(١) إبراهيم: ٤٣.
(٢) الدخان: ٤٨.
(٣) الأنبياء: ٦٤.
(٤) الأشقر: زبدة التفسير ص ٤٢٧.
(٥) الأنبياء: ٦٥.

كما لم يذكر أجزاء أخرى ،لأنه لم يكن معنيا بذكرها، وحتى هذه الأعضاء والأجزاء الخاصة بجسم الإنسان ذكرت عرضا إلا القليل منها ، فلم يكن القرآن كتاب علم يهتم بالتفاصيل ، وإن ذكر بعض الأشياء الخاصة بخلق الإنسان ، فقد جاء في معرض الهداية والإرشاد إلى أن الله هو خالق كل شيء، وأنه لا معبود سواه، وتلك هي إحدى معجزات القرآن التي تصل بالإنسان إلى أنه وحي من عند الله ، وأن ما هو مبثوث في كتاب الله ليست نظريات علمية » فهذا لا يقول به عاقل ، لأن طريق الوحي في تقديم الحقائق غير طريق العلم ، لكن الذي أظهره البحث ، وبينته المقارنة، أن الحقائق التي قضى العلم زمنا طويلا للكشف عنها كانت حاضرة في القرآن، لتشهد أنه من عند الله »[1] .

قلنا إن الشعر لم يذكر في القرآن بهذا اللفظ، ولكنه ذكرا مقدرا ، أي يفهم من السياق، فموسى عليه السلام عندما ذهب لملاقاة ربه، وعاد بالألواح، وجد بني إسرائيل يعبدون العجل، فغضب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾[2] أي أخذه من شعره، وهو غاضب، إذ لم يرض بلين أخيه مع الجماعة التي انساقت وراء السامري،الذي صنع لهم عجلا ليعبدوه، وأخذ « شعر أخيه بيمينه ولحيته بشماله»[3] فقال له: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾[4] .

ونجد لفظ الشعر في آية أخرى، ولكنه لم يصرح به كذلك، فعندما يقول تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [5] على لسان زكريا، فأصل الكلام اشتعل شيب رأسي .

***

(١)هند شلبي: التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظرية والتطبيق ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢)الأعراف: ١٥٠.

(٣)السيوطي : تفسير الجلالين ص ٢١٥.

(٤)طه: ٩٤.

(٥)مريم: ٤.

٢) الناصية

ومن الأماكن الموجودة في الرأس نذكر الناصية، والناصية شعر في مقدم الرأس، والآيات التي ذكرت فيها الناصية، نجد فيها فعل الأخذ « والأخذ من الناصية أخذ من لا يترك له تمكن من الانفلات، فهو كناية عن أخذه إلى العذاب، وفيه إذلال، لأنهم كانوا لا يقبضون على شعر رأس أحد، إلا لضربه أو جره »[١] وتقرن نواصي العصاة يوم القيامة مع أقدامهم، ويلقى بهم في النار، ولكن ناصية العاصي يوم القيامة، لها سمة خاصة، و توصف بأنها ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ فهل يعني هذا أن الشرف والمكانة التي يدعون في الدنيا شرف كاذب، وأن طريق الشرك التي اختاروها طريق خاطئ ؟ أم أن هناك معنى آخر ؟ قد يكون ما توصل إليه علم الإجرام يفيدنا في هذا المجال، فالمحققون مع الجناة يضعون جهازا على ناصية المتهم، ثم يستجوبونه، فإن كذب في جوابه أعلن هذا الجهاز عن كذبه، ولعل ناصية العصاة يوم القيامة تبيح بكل ما قام به أصحابها من كبائر وخطايا في حق الله والناس، كما تبيح بقية الأعضاء وتشهد على صاحبها بما ارتكب من ذنوب ومعاصي ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [٢] أما أبو لهب فله ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [٣] والله سبحانه وتعالى آخذ بناصية مخلوقاته، فكلها في قبضته، وتحت إمرته، وجميعها ملك له، مشدودة إلى قدرته، جل وعلا ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [٤].

٣) الجبهة

الجبهة ما بين الحاجبين إلى الناصية، وهي من الأعضاء السبعة التي يسجد عليها في الصلاة، وتكون يوم القيامة عرضة للعذاب، إما لأن صاحبها لا يعرف

(١) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٥٠.

(٢) الرحمن: ٤١.

(٣) العلق: ١٥، ١٦.

(٤) هود: ٥٦.

السجود لله، وكان عاصيا وجاحدا لدين الله، والعصاة لا يستطيعون السجود يوم القيامة، وكيف يستطيعون السجود، وهم لم يسجدوا من قبل، وإما لأن المال الذي رفعه بين قومه، وجعله سيدا يهابه الناس، لم يساعد به أحد من خلق الله، والمال مال الله، ولكن الله استخلفهم فيه، لقد رفعه المال في الدنيا فكان جبهة قومه، وجبهة القوم في اللغة سيدهم، وعادة ما يكون سيد القوم ثريا، وفي الغالب يتحصل على المال بطرق غير مشروعة، والقرآن يخبر المؤمنين أن الكثير من الرهبان والأحبار الذين اتخذهم اليهود والنصارى أربابا من دون الله، يأكلون السحت والمال الحرام، كالرشوة وغيرها، ويجمعونها ولا ينفقونها في سبيل الله، أو يساعدون بها المحتاجين، ثم يصدون الناس عن الدخول في دين الله، هذه الأموال تتحول يوم القيامة إلى نقمة عليهم، فتحمى في النار وتكوى ﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾[(١)].

٤) الجبين

الجبين ما فوق الصدغ ،عن يمين الجبهة أو شمالها: أي أن للإنسان جبينين، تفصل بينهما الجبهة، وقد ذكر الجبين في القرآن، في قصة ذبح إبراهيم لابنه، فعندما أخذه والده للمنحر بمنى، بعد أن استسلما لأمر الله تعالى، طرحه على شقه، فوقع أحد جبينيه على الأرض، حتى لا يرق قلبه لمرأى فلذة كبده ، وهو يفارق الحياة، وفي هذه اللحظة الرهيبة، سمع إبراهيم صوتا من الجبل : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا: أي كان عازما على ذبح ولده، كما أمره ربه ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)] وسنعود إلى رؤيا إبراهيم في آخر هذا البحث.

***

(١) التوبة: ٣٥.

(٢) الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٥.

٥) الوجه

الوجه، ما يواجهك من الرأس، أو ما يقبل من كل شيء، وفي الوجه العينان والفم والأنف، وقد ورد لفظ الوجه في القرآن بعدة معان، منها القبلة التي ارتضاها الله لعباده المؤمنين في الصلاة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(١) ومنها طلب رضى الله بدون رياء ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾(٢) وإبراهيم توجه بذاته وعبادته إلى الله ، دون غيره ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣) والرسول أمره ربه بأن يوجه قصده لعبادة الله تعالى وحده ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤). و غسل الوجه ثلاث مرات من فرائض الوضوء السبعة، لقوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾(٥) .

و« حد الوجه طولا من منابت شعر الرأس المعتاد إلى منتهى الذقن، فيمن لا لحية له، أو منتهى اللحية فيمن له لحية، وحده عرضا من وتد الأذن إلى الوتد الآخر، فلا يدخل الوتدان في الوجه، ولا البياض الذي فوقهما، ولا شعر الصدغين، ويدخل في الوجه البياض الذي تحتهما، فيغسل وترة الأنف (وهو الحاجز بين النقبتين)، وأسارير الوجه (تكاميشها)، وظاهر الشفتين، وما غار من جفن، أو جرح، أو أثر جرح »(٦)

ويواجه الكافرون يوم القيامة مصاعب جمة وحرج شديد، فوجوههم مسودة، وباسرة أي «قبيحة المنظر» و ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾(٧) أي عليها غبار وكدر،

(١) البقرة: ١١٥.

(٢) البقرة: ٢٧٢.

(٣) الأنعام: ٧٩.

(٤) يونس: ١٠٥.

(٥) المائدة: ٦.

(٦) القروي : الخلاصة الفقهية ص ٧.

(٧) عبس: ٤٠ ـ ٤١.

ويغشاها سواد وذلة وشدة، لما تراه مما أعده الله لهم من العذاب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾[1] وقد عرفوا مصيرهم الفظيع، لحظة رحيلهم عن الدنيا، فقد رأوا بأعينهم ما أعد الله لهم من العذاب الأليم، فعندما قبضت الملائكة أرواحهم، كانوا ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾[2] .

ويواجه المكذبون والمنافقون والمرتدون والضالون بسؤال ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ والجواب هو ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾[3] وترى على وجوههم الخزي ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾[4] ويسحبون على وجوههم كما يقع في الدنيا لإهانتهم وتعذيبهم ، وهم في أتعس حالة، لا يرون، ولا يسمعون، ولا يتكلمون ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا ﴾[5] قيل يا رسول الله: كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : « الذي أمشاهم على أرجلهم، قادر أن يمشيهم على وجوههم»[6] وقال تعالى أيضا ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا ﴾[7] ويلقى بهم في النار .

وذكر ما يتعرض له الوجه لأنه أشرفها، ولا يوجد أعز شيء عند الإنسان مثل وجهه ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[8] لقد خفت موازين أعمالهم فكان مصيرهم النار ﴿ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا

(١)عبس: ٤٢.
(٢)الأنفال: ٥٠ ومحمد: ٢٧.
(٣)آل عمران: ١٠٦ .
(٤)يونس: ٢٧.
(٥)الإسراء: ٩٧.
(٦)رواه البخاري ومسلم.
(٧)الفرقان : ٣٤.
(٨)النمل : ٩٠.

﴿كَٰلِحُونَ﴾[1] وكالحون بمعنى عابسون، وقد تدلت شفتا الواحد منهم، وتقلصت بسبب العنت والشدة التي سيلاقيها، ويرمى بهم في النار، ويسحبون على وجوههم، ويقال لهم ذوقوا ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾[2] أي أن مجرد مس عذاب جهنم يهلك ويفني.

أما لباسهم فهو من قميص صنع من القطران، وهو منتن الرائحة، سريع الالتهاب، وترى النار تسرع إلى وجوههم، والوجه كما قلنا، أشرف ما في البدن ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[3] وليس بغريب أن تصنع القمصان من القطران، فأكثر لباس أهل العصر مصنوع من البترول، وهو مادة سريعة الاشتعال مثل القطران وبالمقابل، فوجوه المؤمنين بيض لا يرهقها ﴿قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ بل ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[4] وإذا كانت وجوه المعذبين تلفحها النار، وهم يصرخون ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾[5] فإن المؤمنين ينعمون برضوان الله، ونعيمه الخالد ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[6].

وجهك الذي تحافظ عليه في الدنيا، وتمنع عنه كل أذى، وتجنبه كل إهانة كالصفع مثلا، وهو عنوان وجودك، تصور أنه إذا أزيل عن البدن لا يعرف من صاحب هذا البدن، فاعمل على أن تجنبه الإهانة والعذاب يوم القيامة، وذلك بالإيمان، والعمل الصالح، فكن مؤمنا يسلم وجهك من كل مكروه.

***

(١)المؤمنون : ١٠٤.
(٢)القمر : ٤٨.
(٣)إبراهيم: ٥٠.
(٤)المطففين: ٢٤.
(٥)الأعراف:٦٦.
(٦)آل عمران: ١٠٧.

٦)الأذن

الأذن هي جهاز السمع، وهي الواسطة التي يتم بها حفظ اللغة والنطق بها، وبالأذن يتسنى للإنسان الكلام، وبدونها يكون أبكم، فالطفل الذي يولد أصم، يصعب عليه الكلام والنطق، لأن أذنيه لم تسمع اللغة التي يتحدث بها أبواه، فعن طريق الأذن يتم تعليم اللغة « وبهذه الآلة يتعلم طلاب العلم أكثر من تسعين في المائة من علومهم، كما أن أكثر من تسعين في المائة من العلوم الإنسانية قد قامت عليها »[(١)].

وبالأذن يتعرف الإنسان على أصوات مختلفة ومتنوعة في هذا الكون، وبالأذن وحدها يميز الصوت عن غيره، ولمنزلتها يقدمها القرآن عن العين، فهو يذكر السمع أولا، ثم البصر ثانيا لأن « جهاز السمع أرقى وأعقد وأدق وأرهف من جهاز الإبصار، ويمتاز عليه بإدراك المجردات كالموسيقى، وإدراك التداخل مثل حلول نغمات داخل بعضها البعض، مع القدرة على تمييز كل نغمة على انفراد، كما تميز الأم صوت بكاء ابنها من بين زحام هائل من آلاف الأصوات المتداخلة، يتم هذا في لحظة زمن، أما العين فهي تتوه في زحام التفاصيل، ولا تعثر على ضالتها، يتوه الابن عن عين أمه في الزحام، ولا يتوه عن سمعها، وموسى سمع كلام الله، ولم يستطع أن يراه »[(٢)].

وكثيرا ما يمن الله على عباده بنعمة السمع فهو ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[(٣)] وقال أيضا ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾[(٤)] ولكن الإنسان لا يشكر الله على نعمة السمع وغيرها من

(١)الزنداني : كتاب توحيد الخالق ج ٢ ص ١٣٩.

(٢)مصطفى محمود: القرآن محاولة لفهم عصري ص ٢٢٧.

(٣)النحل ٧٨.

(٤)يونس: ٣١.

النعم، وقليل هم الشاكرون الحامدون.

ومن صفات الله أنه سميع، ولكن سمعه ليس كسمعنا، وكيفية سمعه من الغيب الذي استأثر الله به لنفسه، فلا نسأل كيف هو؟ ما دامت ذواتنا ليس كذاته، وصفاته ليست كصفاتنا، كل ما نعرفه أن الله سميع، أي شديد السمع، وقد سمعنا عن طريق الرسول في القرآن، أن الله يسمع، فقلنا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1].

ويكثر في كتاب الله فعل السمع بمختلف صيغ الفعل، وقد جاء فعل السمع، والعضو الذي تتم به عملية السمع على نوعين ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي تعي وتدرك ما تسمع من القرآن، فيرى القلب أنه حق، وأنه وحي نزل من السماء، وما على العاقل إلا الإيمان به، وتصديق من جاء به، وتسمع أخبار الأولين فتتعظ به، ويكون ما وقع في التاريخ عبرة وموعظة، يستدل بها الإنسان على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه، وشدة انتقامه وقد مدح الله هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[2] ونهاهم أن يكونوا ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[3] ويعني بهم المشركين والمنافقين الذين كانوا يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[4] أي أنهم قادرون على الإتيان بمثل ما أتى به محمد ﷺ من قرآن، لأن محمدا بزعمهم قد افترى على الله كذبا، وكان اليهود ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾[5].

ونعت آذان الساخرين والمكذبين بالقرآن بالصمم، وثقل السمع، ويعرضون

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) الزمر: ١٨.

(٣) الأنفال: ٢١.

(٤) الأنفال: ٣١.

(٥) النساء: ٤٩.

عن سماع كلام الله، تكبرا منهم وكفرا بما أنزل على محمد، وهو الحق من ربهم، لو يعودون عن غيهم وضلالهم، فنجد كلمة الوقر، وهو الصمم، تتكرر ست مرات في كتاب الله ، فإذا قرأ الرسول على أحد منهم آيات من القرآن﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾[1] وبما أنهم تمادوا في غيهم، فقد جعل الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[2] وكيف لهم أن يفهموا القرآن، وقد صمموا على عدم سماعه، ومن كان هذا شأنه، فلا فرق بينه وبين الحيوان، وقد كان المكذبون بالقرآن، وما زالوا حتى اليوم، وبعد اليوم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[3] .

لقد وصلتهم أخبار كاذبة عن الرسل والأنبياء، تزعم أن هؤلاء الرسل ليسوا من طينة البشر،وإنما هم ملائكة، وبما أن محمدا بشر عاش معهم، يأكل ويتاجر ويتزوج ، إذن هو ليس برسول حسب دعواهم، وطلبوا أن يكون معه ملك يصدقه، فآذانهم لم تسمع الحقيقة كما هي، فأصدقاؤهم اليهود يعلمون أن الأنبياء والمرسلين هم من بني الإنسان، ولا يعقل أن يبعث الله إلى عباده ملكا، لأن الملك لا يقدر البشر على رؤيته، ولو أنزل الله ملكا في صورة بشر،لقالوا هذا بشر مثلنا، فكيف نتبعه ونترك آلهتنا، أو هو ساحر، مرة يظهر في صورة الملائكة، ومرة يظهر في صورة إنسان، والمختار عندهم التشبث بالآلهة، التي هي معبود آبائهم وأجدادهم، ولم يسمعوا في دين النصارى أن عيسى عليه السلام فرط في عبادة الأصنام ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾[4] وما سمعوه عن النصارى من أن عيسى دعا أتباعه إلى عبادة الأصنام، هو محض اختلاق: أي كذب على نبي الله ، الذي دعا إلى

---

(١)لقمان: ٧.

(٢)الأنعام :٢٥.

(٣)الأعراف: ١٧٩ .

(٤)ص: ٧.

التوحيد، ونبذ الشرك كبقية الأنبياء منذ إبراهيم حتى محمد عليهم السلام.

لقد جعل المشركون أصابعهم في آذانهم، حتى لا تسمع القرآن، ودعوا غيرهم إلى الإعراض عنه، وإلى إحداث لغط وتشويش، عندما يشرع الرسول، أو أحد الصحابة في قراءة القرآن ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ (١) .

وإزاء هذا التعنت نصح الله رسوله أن يتركهم وشأنهم، فقد اختاروا طريق العصيان و ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ (٢) وقال لنبيه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) فكأن الرسول يخاطب أحجارا صلدة، فهل تسمع الحجارة الدعاء، أو النداء ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ (٤) فما الفائدة وقد صمموا على الشرك ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾(٥) .

هؤلاء الصم ، سيشهد عليهم سمعهم يوم القيامة، ويذكرهم بأن الرسول أعلمهم بأن الناس يقومون من قبورهم، ويحاسبهم الله على إعراضهم عن القرآن، وفي هذا اليوم يقوى سمعهم ويشتد انتباههم منذ خروجهم من قبورهم أي ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ (٦) .

ويومها يشهد عليهم سمعهم، وبقية الجوارح الأخرى، بأعمالهم الشنيعة مع رسولهم، ويساقون إلى النار، حتى ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ (٧) ورغم أن التغيظ انفعال داخلي في القلب فإن المشركين يسمعون تغيظ النار عليهم،

(١)فصلت: ٢٦.

(٢)البقرة: ٧.

(٣)يونس: ٤٨.

(٤)النمل: ٨٠.

(٥)فاطر: ١٤.

(٦)ق: ٤٢.

(٧)الفرقان : ١٢.

وعلى أمثالهم، ويلقون في النار، وفي هذه اللحظة يسمعون شهيق النار وفورانها، وهي تبتلعهم في حنق وشراهة، لقد نالوا ما يستحقون: إذ لا ظلم اليوم، فكل نفس بما كسبت رهينة، بعث الله إليهم الرسل لتنبيههم بأن البعث آت، لا ريب فيه، وأن الحساب على جحودهم وإنكارهم دعوة الأنبياء، واقع لا محالة، ولكنهم كذبوا بالأنبياء وسخروا منهم ومن دعوتهم، لقد أعطاهم الله قلوبا يفكرون بها، وأعينا يرون بها،وآذانا سمعوا بها ما وقع للأقوام السابقين، الذين عذبهم الله بكفرهم، وإساءتهم لأنبيائهم ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1] ولا يغني عنهم أيضا صريخهم في هذا الوقت بالذات ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[2] .

أما المؤمنون، فقد سمعوا ما جاء به الرسول من دعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، والإيمان باليوم الآخر، فآمنوا وقالوا مع القرآن ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾[3] ونهاهم القرآن أن يكونوا ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[4] كانوا يسيرون حسب أوامر القرآن، من ذلك أنهم إذا سمعوا استقاصا من الرسول، أو القرآن في مجلس، فلا يجلسون مع هؤلاء المستهزئين والساخرين، تنفيذا لأمر الله ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾[5] أو﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[6].

تأدبا بآداب الشرع، فقد كان الواحد من الصحابة يمر في الطريق، فيسمع الشتم والاستهزاء منه ومن دينه، فيمر في حال سبيله، مرددا الآية الكريمة : ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ

(١)الأحقاف : ٢٦.

(٢)السجدة : ١٢.

(٣)آل عمران: ١٩٨.

(٤)الأنفال: ٢١.

(٥)النساء: ١٤٠.

(٦)القصص: ٥٥.

أَعۡمَـٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَـٰلُكُمۡ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَـٰهِلِينَ ﴾[1] .

لقد استغل المؤمنون سمعهم، هذه النعمة التي تلقف الكلام فتستفيد منه، فيرضى الله عن أصحابها، ورضاه يتمثل في إدخالهم الله جنته، ويتقبلهم بقبول حسن، وينزلهم ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾[2] .

وهذه الجنة ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴾[3] أي لا يسمعون شتما ولا استهزاء ولا كذبا ولا كلاما فيه إثم، وباختصار ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَـٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾[4] .

فمن شاء أن يعرض جوارحه، ومنها سمعه إلى عذاب النار، فليعص ربه، ويجحد دعوة رسله ومن شاء أن تسلم جوارحه من النار فليطع الله، وليقبل عليه مسلما أمره إليه، والإنسان حر في اختيار الطريق التي يريدها، ولكنه مسؤول عن هذه الحرية، وعن هذا الاختيار.

وتبقى مسألة تخص الأذن عند الوضوء، وهي لماذا تمسح الأذنان في الوضوء، ويجدد لها الماء ؟ إن مقصد الإسلام من هذا المسح هو إزالة ما سمعت الأذن من كذب أو غيبة،أو من هذيان وغيرها من الآثام.

٧) العين

خلق الله العين لنرى بها الأشياء، ونتعامل معها تعاملا بناء، كما خلقها لنتعرف بواسطتها إلى ما حولنا من مخلوقات الله، فنطلع على قدرة الخالق في ما خلق وقدر من هذه الأكوان الباهرة والسماوات العلى، وما في الأرض من بحار وجبال وأشجار ونبات، وما وجد فيها من حيوانات وكائنات وجماد، كلها تسبح بحمد

(١)القصص: ٥٥.

(٢)الحاقة: ٢٢.

(٣)الواقعة:٢٥.

(٤)مريم: ٦٢.

الله، ولكن لا نفقه تسبيحها ، وقد أنكر، جل وعلا، على المشركين إهمالهم النظر، وغفلتهم عن دقائق صنعه، مما هو قريب إليهم، ينظرون إليه صباح مساء، كالإبل والسماء والأرض والجبال، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1] .

وقد تكررت مادة النظر بجميع صيغها في القرآن أكثر من مائة مرة، وأغلبها يدعو إلى التأمل في ملكوت الله، وكيف خلق الله الإنسان ورزقه القوت، وأسبغ عليه من نعمه الظاهر منها والباطن، فلماذا الجحود والنكران ؟ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[2] .

كما استعمل القرآن ألفاظا أخرى تعد من مهام العين ووظائفها، كالإبصار والرؤية وغيرهما، وكلها تدعو إلى النظر أولا، ثم التأمل والتدبر للوصول إلى الإيمان بالله ومعرفته ثانيا، مصداقا لقول الرسول: « تفكروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في الله ، فإنكم لن تقدروا قدره »[3] قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[4]

وقال تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[5] وقال أيضا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[6]

ومن أسماء العين الطرف، وقد استعمل القرآن هذا الاسم ست مرات، مثل قوله تعالى متحدثا عن حالة المشركين، وغيرهم ممن كذبوا الرسل، وأعرضوا عن دعوتهم: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[7] أي

(١)الغاشية: ١٧-٢٠..

(٢)يوسف: ١٠٥.

(٣)رواه أبو نعيم.

(٤)الذاريات: ٢١.

(٥)الحج: ٦٣.

(٦)النمل: ٨٦.

(٧)غافر: ٤٥.

سرقون النظر من شدة الخوف، و الشعور بالذل والمهانة.

وتحدث الآية الثانية عن الذي عنده ﴿عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في بلاط سليمان، تبرز قدرته على الإتيان بعرش بلقيس ملكة سبأ، قبل أن يرجع الجفن الأعلى إلى لجفن الأسفل، كناية عن السرعة: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[1] .

أما الآية الثالثة فقد مرت بنا عند الحديث عن الرأس، وكيف أن الظالمين كالمشركين وغيرهم يسرعون في مشيتهم يوم الحساب، وقد رفعوا رؤوسهم إلى على، لا ينظرون إلى شيء، وطرفهم لا يرتد إليهم « والمراد أن شخوص أبصارهم ائم في هذا الوقت، لا يزول من شدة الخوف »[2] .

وستأتي الآيات الثلاث الباقية ، عند الحديث عن زوجات المؤمنين في الجنة

العينان إذن عبارة عن ثقبين في أعلى الوجه، يعلوهما حاجبان، كأنهما حارسان أمينان، فيطل منهما الإنسان على الدنيا، وبواسطتهما يرى ما حوله، فيتحرك في هذا الكون، أما مزهوا متكبرا، أو مسبحا بحمد الله، بما فتح عليه من نور وضياء ،هذان العينان جعلت منهما العناية الإلهية رمزا للجمال والحنان، فمنهما تسيل الدموع، خوفا وإشفاقا، أو حزنا وشوقا إلى حبيب وقريب، وبهما تغنى الشعراء، فأجادوا وأمتعوا، وللعين ـ وهما عينان في الحقيقة ـ سحر وقوة وتأثير، فقد يرزق البعض عينين حادتين كالسهم أو كالسيف، وقد تكون حدقة العين عند بعضهم زرقاء أو خضراء أو سوداء، كل ذلك من عطاء الله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[3] .

وقد من الله على عباده بأن خلق لهم حاسة النظر، ليبصروا بها، ويستقيم بها

(١)النمل: ٤٠.

(٢)عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ص ٣٣٦.

(٣)الإسراء: ٢٠.

أمرهم في حياتهم قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾[1].

ومع ذلك فإن الناس غافلون عن رؤية ما فيه هداية إلى الإيمان بالله واحدا لا شريك له، فأعينهم لا ترى إلا ما فيه الإذاية، وعليها غشاوة إلى ما فيه الهداية، هؤلاء مآلهم جهنم، وبئس المصير، فقد كانت: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾[2].

ومما يدل على عماء القلوب، أنهم يعبدون أصناما ليس فيها من الجوارح ما عند الإنسان، وخاصة الإبصار الذي هو إحدى الآيات الكبرى، فكيف يتوجه بالعبادة إلى من يتصف بالعجز، وعدم الإدراك، والخلو من المشاعر والأحاسيس: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ﴾[3].

والذين يدفعون إلى جهنم هم من الذين لم يوظفوا حاستي السمع والبصر في التفكر والاعتبار في مخلوقات الله، والتأمل في دقيق صنعه، وعجائب مخلوقاته، وحسن إتقانه، وكان عليهم أن يؤدي بهم النظر إلى الإيمان بالله، واحدا لا شريك له، في ملكه، وفي ربوبيته: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾[4].

فقد كان على أعينهم « غطاء يحجبها عن رؤية آيات الله، المنبثة في الكون الدالة على وجوده ووحدانيته»[5].

وكان المنافقون في عصر الرسول، يخافون من المشاركة في القتال، وقد عبر القرآن عن هذا الخوف من خلال دوران أعينهم يمينا وشمالا، ويظهر اضطرابهم

(١) البلد: ٨.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) الأعراف: ١٩٥.

(٤) الكهف: ١٠٠، ١٠١.

(٥) عبد الجليل عيسى مرجع مذكور ص ٣٩٤.

على وجوههم من خلال أعينهم، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾[1] .

أما من وظف عينيه للتفكر والاعتبار، وآمن بالله ورسله وكتبه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] وأعد الله لهم من النعيم « ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[3] .

قال أبو هريرة بعد أن روى هذا الحديث: اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾[4] (الآية) وعندها يجدون: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[5] .

كل ذلك جزاء استغلال ، ما أمدهم الله ، به من جوارح فيما خلقت له، وهو العظة والتفكر فيما خلق الله وأبدع، وهؤلاء هم الذين رضي الله عنهم ، ورضوا عنه، بترك نواهيه، وتجنب معاصيه، هم الذين كانوا ينظرون في الدنيا إلى آيات الله ، فتملأ قلوبهم إيمانا، ويقبلون على عبادة الواحد الأحد ، مسلمين وجوههم إلى الله، أما غيرهم ممن تمر عليه آيات الله ، فلا يراها فهو من الذين: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾[6] .

العين هذه الجارحة أو الحاسة الخطيرة في حياة الناس، لو قدروا خلقها، ودورها حق قدره، لعلموا أن وراء ذلك مدبرا حكيما، ولرأوا أن العين معجزة لصانع عظيم ، بيده كل شيء في الأرض وفي السماء: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[7] .

(١)الأحزاب: ١٩.

(٢)السجدة: ١٧.

(٣)رواه البخاري ومسلم.

(٤)السجدة:١٧.

(٥)الزخرف: ٧١.

(٦)الأعراف: ١٧٩.

(٧)طه: ٥٠.

والناظر في لفظ العين، وما حف به من المعاني في القرآن ، يخلص إلى أن لهذه الكلمة معاني تخص الله والإنسان وعين الماء فالله بصير، ولكن كيفية الإبصار مجهولة، والتعرف إلى كنهها محال، والسؤال عنها جرأة في غير محلها، ومضيعة للوقت، وقد نسب الله لنفسه الإبصار، كما نسب لنفسه حاسة البصر، وهي العين في خمس آيات، وقد جاء لفظ العين فيها مفردا (مرة واحدة) وجمعا (أربع مرات) وهذه الآيات هي:

١) ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ (١) أي أحببتك، ومن أحبه الله أحبه الناس، ثم تكفل الله بحفظه، وربي على رعايته .

٢) ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (٢) أي اصنع السفينة يا نوح بمرأى منا وحفظنا، ووحينا أي أمرنا.

٣) ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(٣).

أي أمهلهم يا محمد، ولا يكون الإمهال إلا بالصبر، ويدعوه أن لا يضيق صدره، وكيف يضيق صدره، والله يرعاه، ويحفظه من كيدهم.

٤) ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ (٤) أي تجري سفينة نوح بمرأى من الله ، وحفظه ورعايته .

فما هو المقصود بالعين في هذه الآيات ؟ العين هي عضو الإبصار، وهي تتابع ما يرى ويشاهد، وبالنسبة إلى الله، إذا نظر إلى عبده فإنه راض عنه، وإذا رضي عنه، فإنه يرعاه ويحفظه من كل بلاء و مكروه، وأكثر من ذلك يكرمه برعايته وعنايته، فموسى عليه السلام في الآية الأولى، يذكره بأنه نشأ بمرأى منه، واعتنى به عناية

(١)طه: ٣٩.

(٢)هود: ٣٧.

(٣)الطور: ٤٨.

(٤)القمر: ١٤.

خاصة، رغم أن فرعون مصر كان يقتل أبناء قوم موسى عند الولادة، وأكثر من ذلك أخذه إلى القصر، ونشأ في بيت فرعون، وترعرع حتى بلغ مبلغ الرجال، رغم علم فرعون بأنه من الطائفة التي أمر أن يقتل أبناؤها، فقد شاءت حكمة الله أن يكون هلاكه على يد موسى، الذي نشأ بين يدي فرعون، وبقية الآيات لا تخرج عن هذا المعنى، فنوح، عليه السلام، يصنع الفلك بأمر من الله ووعده، كما وعد الرسول محمد بالحفظ والكرامة والحماية.

ومن معاني العين الإنسانية في القرآن الإبصار والنظر الحقيقي، وهي الوظيفة الأساسية للعين، فالمسلمون في بدر الكبرى، وكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلا، والمشركون عدتهم ألف مقاتل، ومع ذلك يرى المسلمون أن عددهم مساو لعدد المشركين، وهو مدد من الله، وإرهاص بالنص، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾(1).

والواقع أن عدد المشركين ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، ولكن الله شاء أن يرى المسلمون العدد متماثلا، لتأييدهم وتشجيعهم على القتال، ونصر الفئة القليلة على الفئة الباغية الكثيرة شبيه بالمعجزة، والمعجزة خرق للنواميس التي سنها الله، وله أن يخرقها متى شاءت حكمته، وإلا كيف تكون النار بردا وسلاما على إبراهيم، أو ينشق البحر لموسى، أو يفور التنور فيكون الطوفان، وفي الحالات العادية ترى العين في المجال المحدد لها، وقد لا ترى، فالظل ساكن، وهو في الحقيقة متحرك، ولكن العين لا تشعر بحركته، وقد تخدع العين، فتتحول الحبال إلى ثعابين، ويعود هذا إلى المهارة، وخفة اليد، فقد ألقى السحرة الذين جمعهم فرعون أمام أعين الناس، وكان هؤلاء المتفرجون مهيئين لتقبل هذا الخداع نتيجة الخوف والرهبة من هذه الزواحف السامة المتخيلة، لقد جمع فرعون السحرة والمتفرجين ليفحم موسى عليه السلام ويبكته، ولكن شتان بين

(1) آل عمران: ١٣.

ما يريده الله ، وما يريده فرعون، أو بين الحقيقة والوهم أو الخيال والواقع، فقد التهمت عصا موسى التي تحولت إلى ثعبان حقيقي كل الحبال التي ألقاها السحرة، وانتصر التوحيد على الشرك والحقيقة على الخداع والمكر [1] قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [2] وقال أيضا : ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ [3].

وما دامت العين للإبصار، فقد دعا القرآن إلى المحافظة على سلامتها، وفي التوراة حكم مفاده أن من يفقأ عينا تفقأ عينه ، لفعلته الشنيعة، حتى يكون عبرة لغيره، فلا يقبل أحد على مس العين بأذى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [4] ومعنى آخر ورد في القرآن، وهو التذاذ العين بما ترى، أو بما يقوم به الإنسان، من فعل يرضي الله ورسوله، فيشعر الإنسان بالفرح والرضي، وعبر عنه القرآن بقرة العين ، كناية عن السرور، فامرأة فرعون عللت المحافظة على الرضيع موسى بأنه سيكون مصدر سرور، ومنشأ ارتياح لها ولزوجها، وقد ألهمها الله حب هذا الطفل، فحافظت عليه من بطش فرعون ليكبر، وليكون مصدر بلاء ونقمة لفرعون رمز الغطرسة والتكبر، وشاء الله أن يرجع موسى إلى أمه فتقوم برضاعته، وتطمئن على ابنها، وتسر بمرآه، وغيابه عنها لا تستقر نفسها على حال، فتكون مضطربة حائرة، فإن رأته تقر نفسها، وتسكن، ومن هنا جاء لفظ القرة : أي القرار والسكون والثبات والاطمئنان، وبلوغ النفس حالة من الطمأنينة والرضا، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ [5] وقال أيضا : ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [6].

(١)انظر أحمد بهجت: أنبياء الله ص ٢١٢.

(٢)الأعراف: ١١٦.

(٣)الأنبياء: ٦١.

(٤)المائدة: ٤٥.

(٥)القصص: ٩.

(٦)طه: ٤٠.

وقال كذلك: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[1].

والولد نعمة من الله وزينة الحياة الدنيا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[2].

وجاء هذا اللفظ، أي القرة، في صيغة الأمر، في سورة مريم على معنى النصح والإرشاد، فقد خاطب الله مريم بقوله: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾[3].

ولا شك أن الله قد بعث في قلبها الرضا والسكون والارتياح، وإلا فكيف لمن تلد في مثل حالها عفة وأخلاقا أن ترضى، وتقر عينها وفي آية التخيير التي سمحت للرسول بأن يخير بين زوجاته في القسم (بفتح السين) بعد أن كان واجبا عليه، نجد أن الله يعلمه بأن زوجاته ستقر أعينهن، ويرضين بهذا الحكم، ما دام من عند الله[4] قال جل ذكره: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾[5].

وتبكي العين خوفا، وطمعا في رحمة الله وغفرانه، فبعض النصارى عندما سمعوا من الرسول القرآن بكوا وفاضت أعينهم بالدمع، لأنهم عرفوا أن القرآن حق، وأن بعثة الرسول أمر لا شك فيها، قال تعالى متحدثا عن هؤلاء القوم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾[6].

وعندما يمنع بعض المسلمين من المشاركة في الجهاد إما لقلة ذات اليد، أو لأن

---

(١) القصص: ١٣.

(٢) الفرقان: ٧٤.

(٣) مريم: ٢٦.

(٤) انظر عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص٥٥٨.

(٥) الأحزاب: ٥١.

(٦) المائدة: ٨٣.

الرسول لا يستطيع أن يوفر لهم الزاد والراحلة، فإنهم يكون لتخلفهم عن رسول الله، وعدم مشاركتهم في القتال، فإنهم يعودون إلى ذويهم: ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾[1].

ويقابل هؤلاء الفقراء فئة أخرى ثرية ، توفر لها الزاد والراحلة، ولم تلتحق بالجهاد مع الرسول وهم المخلفون.

ويستعمل القرآن طمس الأعين، أي جعل ما بينها وبين المرئي حجابا، فالملائكة الذين جاؤوا إلى لوط عليه السلام طمسوا أعين المقتحمين لمنزل لوط ، قال ابن عباس: حجب سبحانه إدراكهم، فلما دخلوا المنزل لم يروا أحدا ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾[2] وقال جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[3].

لقد أرادوا من لوط تمكينهم ممن أتاه من الملائكة، ليفجروا بهم، كما هو عادتهم، ولكن الله صير أعينهم ممسوحة، لا يرى لها مكان، وأصبحوا عميا يترددون لا يبصرون الطريق[4].

أما القسم الثالث فهو خاص بعين الماء، والعلاقة بين عين الماء وعين الإنسان نبع الماء في كليهما « ويقال لمنبع الماء عين تشبيها بها لما فيها من الماء »[5] وقد ذكرت عين الماء في القرآن تسع عشرة مرة في المفرد والمثنى، وتجمع على عيون كأن عين الماء في القرآن لا تجمع إلا على عيون، وعين الإنسان تجمع على أعين.

ونجد في القرآن نوعين من العيون: إحداهما خاصة بالدنيا، والأخرى خاصة

(١) التوبة: ٩٢.

(٢) يس: ٦٦.

(٣) القمر: ٣٧.

(٤) انظر الأشقر: زبدة التفسير ص ٥٨٥.

(٥) الراغب الاصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٥٣٠.

بالآخرة: أي عيون في الجنة وعيون في النار.

أما النوع الأول، فنجد فيه صنفا خاصا من العيون، كعين حمئة، وعين القطر، فالأولى تعني الطين الأسود، وقد تراءت لذي القرنين كذلك عن بعد، وإلا فهي خلاف ذلك، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾[1].

والقطر النحاس المذاب، والنحاس يكون صلبا، ولكن سليمان، عليه السلام، كان له النحاس مذابا، كما ألين الحديد لداود: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾[2].

والماء الصالح للشراب، هو الذي طلبه موسى لقومه، فضرب الحجر بعصاه، فانبجست: أي تفجرت عيون الماء، والقرآن عندما يكرر الحادثة الواحدة، يغير اللفظ حسب السياق والمقام ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[4].

ويذكر القرآن العيون، ويعني بها الأمن والنعيم والعيش الرغيد، والمساكن الحسنة والمجالس البهيجة، يظهر ذلك في زوال هذه النعم عن فرعون وجنوده: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[5].

وقال أيضا: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[6].

ودعا هود عليه السلام قومه إلى توحيد الله، والخشية منه، ولفت نظرهم إلى

(١) الكهف: ٨٦.

(٢) سبأ: ١٢.

(٣) البقرة: ٦٠.

(٤) الأعراف: ١٦٠.

(٥) الشعراء: ٥٧.

(٦) الدخان: ٢٥.

النعم التي أمدهم بها الله، فقد سخر لهم الأنعام ، كالإبل والبقر والغنم، وأعطاهم العيون التي تسقي البساتين الممتدة، فكيف يمكن التفريط في هذه النعم بالعناد، واتباع طريق الغي والضلال: ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (1) وقال: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (2) .

وقد من الله على عباده بما أسبغ عليهم من خيرات ونعم، ومنها الماء، مصدر الحياة، وبه تنشأ الجنات والبساتين، بفضل انبجاس الماء من عيون الأرض: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ (3) .

وتتحول العيون إلى طوفان يعم الأرض، ويغرق قوم نوح الذين كذبوه، والآية من سورة القمر تبين كيفية وقوع الطوفان، الذي التقت فيه العيون النابعة من جوف الأرض، والنازلة من السماء، فملأت الأرض، وأغرقت من فيها، قال تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (4) .

وجعل الله ولادة عيسى، عليه السلام، آية تدل على عظيم قدرته، وبديع صنعه، فقد ولدت أمه به من غير أن يمسها رجل، وليس ذلك بمستغرب، فالله وضع قوانين التناسل، وهو الذي يخرقها كلما أراد، وقد وفر لمريم وابنها كل أسباب الراحة، كما وفر لها الاستقرار النفسي والمادي، فأوت مع صغيرها إلى ربوة في بيت المقدس، بها الثمار والزرع ، بالإضافة إلى الماء الذي لا تستقيم الحياة بدونه، وهو ماء جار، عبر عنه القرآن بماء معين: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (5) .

---

(1) الشعراء: ١٣٣، ١٣٤.

(2) الشعراء: ١٤٦-١٤٨.

(3) يس: ٣٣-٣٤.

(4) القمر: ١٢.

(5) المؤمنون: ٥٠.

وكل هذا الماء الجاري لا يمكن الحصول عليه لولا حكمة الله، وعنايته بعباده، حتى يجعل هذه الأرض مكانا يسهل العيش فيه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾[1].

أما الماء في الآخرة فنوعان: ماء مخصص لأهل النار، وماء وشراب مخصص، لأهل الجنة، فأهل الجحيم يشربون الماء الآني، وهو ماء شديد الحرارة، لا يروي ظمأ، ولا يشفي غلة، بل يزيد في العطش، وأهل الجحيم، رغم تعرضهم لصهد النار يشربون هذا الماء الذي يغلي في البطون كغلي الحميم، والحميم ماء حار « يشربونه فيقطع أمعاءهم »[2] قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾[3].

وبالعكس يتدفق الماء في الجنة فيستلذه الرائي والشارب معا: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾[4] وماء الجنة ممزوج بأشربة كانت ممنوعة عليهم في الدنيا: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾[5] ويوصف الماء بأنه سلسبيل، وسمي بذلك لسهولة انحداره في الحلق، فيستسيغه الشارب، ويتجرعه بسهولة: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾[6].

ويسقى أهل الجنة من رحيق مختوم، ريحه كالمسك، ويمزج بشراب آخر يسمى التسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة، يسقى للمقربين، وينبع من عين في الجنة: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾[7].

(١) الملك: ٣٠.
(٢) الأشقر: زبدة التفسير ص ١٧٣.
(٣) الغاشية: ٢-٥.
(٤) الغاشية: ١٢.
(٥) الأنبياء: ٦.
(٦) الإنسان: ١٢.
(٧) المطففين: ٢٥-٢٨.

وقال جل ذكره : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [1] وفي كل من هذين الجنتين عين جارية، أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: جنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ، ويفور الماء من هذين العينين: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [2] أو ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [3] .

والحاصل أن أهل الجنة في نعيم دائم، وقد عبر القرآن عن هذا النعيم بالعيون الجارية، في مقابل العيون الحارة التي يشرب منها المعذبون: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [4] أو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [5] .

ويوصف شراب الجنة بأنه معين، وذكر الكأس يدل على الشرب نفسه، وهو من نهر معين جار وظاهر للعيون: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [6] وقال تعالى أيضا : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [7]

هذا بالإضافة إلى تنعمهم بزوجات جميلات العيون، وخص العيون بالذكر لأنها مصدر الجمال والفتنة في المرأة، وهن حور عين (بكسر العين) والحور أن يغلب سواد العين على بياضها، مع قوة كل منهما، وهي من صفات المرأة الجميلة والعين أي واسعات العيون، والواحدة عيناء [8] وهن لا ينظرن إلا إلى أزواجهن لجمالهم، وهو ما عبر عنه(بقاصرات الطرف) والطرف في اللغة هو العين، كما ذكرنا

(1)الرحمن: ٤٦.
(2)الرحمن: ٥٠.
(3)الرحمن: ٦٦.
(4)الحجر: ٤٥، وكذلك الذاريات: ١٥ .
(5)الدخان: ٥١، ٥٢.
(6)الصافات: ٤٥.
(7)الواقعة: ١٧، ١٨.
(8)أبوبكر السجستاني : نزهة القلوب ص ٣٤٤.

أعلاه، وقد جاء في القرآن بهذا المعنى في ثلاث آيات، وهي:

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾[1].

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾[2].

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾[3].

وإذا كن يقصرن نظرهن على أزواجهن لجمالهم، فإنهن أيضا غاية في الجمال، ويبرز الجمال في العيون خاصة: ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾[4] وهم كذلك ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾[5].

وشبه الحور العين باللؤلؤ المكنون، وهو الذي لم تمسه الأيدي، ولا وقع عليه الغبار، فهو أشد ما يكون صفاء، شبه به نساء الجنة في بياضهن، وحسن لونهن وصفاته: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾[6].

ونفر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم من اللذات العاجلة الزائلة، فدعاه أن لا يطمح ببصره إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها، وتمن لها، ولا يهتم بالأزواج، وهم الأغنياء وأشباههم، ولا يديم إليهم النظر إدامة استحسان وتمن[7] ودعاه أيضا أن يحبس نفسه مع المؤمنين الفقراء، ولا تتجاوز عيناه إلى غيرهم من ذوات الهيئات والزينة، وقد كان كفار قريش يريدون أن يبعدوا الرسول عن مجالسة الفقراء والعبيد، هؤلاء: ﴿ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[8].

---

(1) الصافات: ٤٨.

(2) ص: ٥٢.

(3) الرحمن: ٥٦.

(4) الدخان: ٥٤.

(5) الطور: ٢٠.

(6) الواقعة: ٢٢، ٢٣.

(7) انظر الأشقر ص ٣٤٤.

(8) الكهف: ٢٨.

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾[1].

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾[2].

هكذا حقق القرآن بمادة العين معجزتين باهرتين:

أولاهما : خلق العين وإنشاء هذه الحاسة النفيسة لدى الإنسان والحيوان، والتي بدونها لا تستقيم حياة، ولا يهنأ بغيرها عيش.

وثانيهما : معجزة اللغة، فقد عبر القرآن بواسطة لفظة العين عن معان ثرية، تكاد تكون خاصة به، وانتقل بهذه المعاني من المحسوس إلى المجرد، ومن عالم الشهادة .

٨)الأنف

الأنف عضو التنفس والشم، ومع الأنف نجد المنخرين والحاجز الذي يفصل بينهما« وهو جهاز نعرف به روائح المواد ذات الرائحة، ويبطل عمله إذا أصيب الإنسان بمرض الزكام، وحدود عمله ضيقة جدا: إذ أن قدرته على الشم لا تتجاوز بضعة أمتار، ويختص بالمواد ذات الروائح»[3] .

ويتم في الوضوء غسل الأنف، للحديث الذي رواه البخاري في صحيحه، ومالك في موطئه «إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماء ثم لينثر » وعملية الاستنشاق تتمثل في استنشاق الماء باليد اليمنى، واستنثاره باليسرى، بأن يضع إصبعيه السبابة والإبهام من يده اليسرى على الأنف، كما يفعل في الامتخاط، ثلاث مرات، وبهذه الطريقة يزيل بعض الروائح الكريهة التي شمها بين الوضوئين .

والأنف هو مظهر الكبرياء عند الإنسان، ومنه جاءت لفظة الأنفة أي يشمخ

(١)الحجر: ٨٨.

(٢)طه: ١٣١ .

(٣)الزنداني: كتاب توحيد الخالق ج٢ ص ١٣٧ .

بأنفه، إلى عالم الغيب.

وفي شريعة موسى ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ [1] وذلك عند القصاص، فإذا جدع الأنف كله، يجدع أنف الجاني به، وأنف الوليد بن المغيرة عدو الرسول اللدود سماه القرآن خرطوما استخفافا وإهانة في قوله تعالى ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [2] أي يجعل له علامة يعرف بها، كما توسم الإبل « وذكر الخرطوم فيه جمع بين التشويه والإهانة، فإن الوسم يقتضي التمكن، وكونه في الوجه إذلالا وإهانة، وكونه على الأنف أشد إذلالا، والتعبير عن الأنف بالخرطوم تشويه، والضرب والوسم كناية عن قوة التمكن، وتمام الغلبة، وعجز صاحب الأنف عن المقاومة، لأن الأنف أبرز ما في الوجه، وهو مجرى النفس، ولذلك غلب ذكر الأنف في التعبير عن إظهار العزة في قولهم شمخ بأنفه وهم شم العرانين »[3] .

الأنف هبة من الله بواسطته نتشمم الأشياء، ونميز بين ما هو طيب الرائحة، وما هو كريه منها، واستنشاق روائح الزهور الذكية الرائحة ينعش القلوب، فتربى النفوس على ماهو زكي الرائحة، وتمج كل رائحة كريهة، وكان الرسول ميالا إلى الرائحة الذكية، فكان يقول «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة » (رواه النسائي).

٩)الفم

فم الإنسان، نعم كلنا نعرفه، إنه فتحة في الوجه، في داخلها الأسنان واللسان، وهما للمضغ والنطق، ووراء هما الحلق والحنجرة أو الحلقوم ، ويسن للمتوضئ أن يدخل الماء في فمه ويخضخضه، ثم يطرحه ثلاث مرات، تطهيرا للفم مما تفوه به من هذيان أو شتم للناس، وغير ذلك مما يحسن بالعاقل أن يتجنبه، وسنعود إلى المعاني

(١)المائدة: ٤٥.

(٢)القلم: ١٦.

(٣)الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٧٧ ــ ٧٨.

الخاصة بالفم، كما ذكرت في القرآن، عند حديثنا عن اللسان، أما أجزاء الفم التي ذكرت في القرآن فهي:

أ) الشفتان

الشفة هي الجزء اللحمي الظاهر الذي يستر الأسنان، وهما شفتان، جعلا لستر الفم بصورة لا تخلو من تنسيق عجيب، وحكمة بالغة، تصوروا كيف يكون حال الفم؟ لو لم توجد في مقدمته الشفتان ؟ أسنان بارزة، وفم مشوه، ومظهر قبيح، وعجز عن الأكل والشرب بطريقة سهلة وناجعة، وعجز أكبر عن التعبير، والنطق بحروف كالباء والميم والواو، أليست الشفتان نعمة كبرى ؟ ولله العزة ، عندما يمن على الإنسان بجعل شفتين في مقدمة الفم ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [1] فمن انفتاح الشفتين « وانغلاقهما تتكيف أصوات الحروف التي بها النطق، وهو المقصود هنا »[2] .

ب) الأسنان

ورد ذكر السن مفردا في القرآن ، بمناسبة الحديث عن شريعة موسى، في خصوص القصاص الخاص بهذه الشريعة، قال تعالى ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [3] أي «وكذلك السن إذا قلعت أو كسرت، تؤخذ بها، لا فرق بين الثنايا والأنياب، والأضراس والرباعيات، وأنه يؤخذ بعضها ببعض، ولا فضل لبعضها على بعض، وينبغي أن يكون المأخوذ في القصاص من الجاني هو المماثل للمأخوذ من المجني عليه، كالأذن اليمنى بالأذن اليمنى مثلا دون اليسرى » [4] .

***

(١) البلد : ٨ ـ ٩.

(٢) ابن عاشور ، التحرير ... ج٣٠ ص٣٥٤.

(٣) المائدة: ٤٥.

(٤) الأشقر: زبدة التفسير ص ١٤٥.

ج) الحنجرة أو الحلقوم

الحلقوم تجويف خلف تجويف الفم، وفيه ست فتحات، فتحة الفم، وفتحتا المنخرين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحنجرة، وهي مجرى الطعام والشراب والنفس، وقد عبر القرآن عن الخوف الذي يواجه الإنسان في حالة الحرب، فقال: ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ (1) «كناية عن اضطراب القلوب عند الفزع»(2) وهو ما وقع للمسلمين في غزوة الأحزاب، ونجد نفس المعنى بالنسبة للعالم الآخر، أي شدة الخوف والرعب الذي يشعر به الإنسان يوم القيامة ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (3) .

أما لفظ الحلقوم فقد استعمل معبرا لخروج الروح من الجسم عند الموت، فقد تحدى الله أن يمنع المشركون خروج الروح عن مرضاهم عند الاحتضار، فهم ينظرون إليهم، ولا يفعلون شيئا لإنقاذهم من الهلاك ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ (4) .

من الحنجرة تكون الأصوات، ومن الحلقوم يتوجه الطعام والشراب إلى المعدة، بعد أن يمر من الشفتين إلى الأسنان، ثم يتذوقه اللسان، فيتعرف على طعمه هل هو حلو أو مر أو مالح ... إلخ.

د) اللسان

وهو كذلك من مكونات جهاز النطق الأساسية، وجهاز النطق لدى الإنسان آية من آيات الله في الخلق والإبداع، ومن أجزاء هذا الجهاز الفم، وهو كما رأينا، تجويف ينتهي بفتحة تتمطط، وتتقلص نسميها الشفتين، تليها الأسنان في الفكين

(1) الأحزاب: ١٠.
(2) عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص ٥٥٠.
(3) غافر: ١٨.
(4) الواقعة: ٨٣ ـ ٨٤.

الأعلى والأسفل، ثم يتمدد اللسان في هذا التجويف، واللسان له قدرة عجيبة على الحركة والقيام بوظائف مختلفة، ثم نجد بعد ذلك الحنجرة والوترين الصوتين والحلق، ويليهما قصبة هوائية محاذية للبلعوم، وتنتهي فوهة الفم باللهاة، ويتصل هذا التجويف الفموي بمسلك أو معبر، يؤدي إلى الأنف، يساعد على إخراج بعض الأصوات إخراجا خاصا، وبعض أجزاء الفم غير متحرك، أما الأجزاء المتحركة فهي اللهاة والشفتان والوتران الصوتيان واللسان والفك الأسفل.

ويقوم الفم بوظائف مختلفة ومتعددة ، كالأكل والشرب والتذوق، والتعبير عن المحبة والحنان والبكاء والضحك والصراخ والاستغاثة، ومن وظائف الفم ابتلاع الهواء النقي ثم خروجه عن طريق الرئتين هواء فاسدا، أو ما يسمى علميا بغاز الفحم، وأهم أدوار الفم الكلام، فكيف تتم عملية التصويت أو الكلام باختصار ؟

يشبه علماء الأصوات الرئتين بالمنفاخ: إذ يتصاعد منهما الهواء، فتعترضه الأوتار الصوتية، فيحدث اهتزازا، ويقوم الحلق وداخل الفم وداخل الأنف في هذه العملية بدور المدوي بالنسبة للصوت المحدث، وفي كل عملية نطق أو تصويت لا بد من توافر عنصرين لإحداث الأصوات، وهما إخراج النفس من الرئتين، وتفصيل النطق في الفم[1] فيخرج كل حرف أو كل صوت واضحا ومميزا، وقد سمى العرب القدامى المكان الذي يقع فيه اعتراض الهواء الآتي من الرئتين بالمخرج، وتحديدهم لمخارج الحروف، دون اعتماد أجهزة علمية دقيقة، يدل على براعة وذكاء نادرين، وعدد الحروف في كل لغة محدود، إلا أن المتكلم يستطيع أن يستغل هذا العدد من الحروف والكلمات استغلالا لا حد له، فينتج عدد آخر غير محدود من الوحدات الصوتية، ذات المعنى الدقيق.

(١)انظر جون كونتنو: دروس في علم الأصوات العربية تعريب صالح القرمادي ص ١٩ ط تونس ١٩٦٦.

وتنتقل هذه الوحدات الصوتية عبر الهواء، فتنقل إلى الدماغ، من طريق طبلة الأذن، فيفكك السامع هذه الرموز الصوتية، ويفهمها على حقيقتها، من خلال تجربته مع اللغة المنطوقة، وتعلمه لقواعدها، وتعرفه ترتيب الأصوات في لغته

يقول أحد علماء اللغة المعاصرين: «هل تستطيع أن تدلني على أحد يستطيع أن يستغل النفايات بطريقة أجزى، وأكثر كفاءة وأهمية من استعمال الإنسان لنفايات عملية التنفس»[1].

هذا الهواء الذي لم يعد ينفع الإنسان أراد الله سبحانه وتعالى أن يصنع منه معجزة الكلام، وقد قال تعالى في معرض المن على ما حبا به الإنسان من نعم لا تحصى فوائدها منها اللسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾[2].

وهو منّ في محله لمكانة العينين واللسان والشفتين في حياة الإنسان، وقد تكررت لفظة اللسان في القرآن خمسا وعشرين مرة، وجاءت بصيغة المفرد (١٥ مرة) وفي صيغة الجمع (١٠ مرات) ويدل اللسان في القرآن ـ حسب السياق ـ على المعاني الآتية:

١) اللسان ويعني به المدلول العام، وهو اللغة، التي هي وسيلة اتصال بين البشر، ثم يقع التخصيص باللغة العربية التي نزل بها القرآن، وقد ورد بهذا المعنى ثماني مرات في الآيات التالية:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[3].

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[4].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾[5].

---

(١) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ٢٥٤ ط الكويت ١٩٧٨.

(٢) البلد: ٩.

(٣) إبراهيم: ٤.

(٤) الشعراء: ١٩٤ ــ ١٩٥.

(٥) الأحقاف: ١٢.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[1] .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[2] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾[3] .

٢) اللسان ويعني به إحدى وظائفه وهي الكلام والنطق كقوله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[4] ولكن هنا الكلام لا يؤدي وظيفته إلا إذا كان بليغا وفصيحا، مثل هذه الآية التي جاءت على لسان موسى عليه السلام، وقد كان في لسانه حبسة، فطلب من الله أن يرسل معه أخاه ليساعده في مهمته الثقيلة ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾[5] ونجد موسى يطلب من الله أن يطلق تلك الحبسة في لسانه حتى يفهمه المتلقي، ويبين عن مقصوده ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾[6] .

وعبر موسى عن تخوفه من عدم أداء الرسالة لوجود تلك الحبسة في لسانه، فيصاب بالحزن الشديد، لأنه لم يوصل الرسالة إلى متلقيها كما يجب، فطلب من ربه مرة أخرى أن يرسل معه هارون أخاه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾[7] .

٣) ويدل اللسان في القرآن على الثناء والمدح الباقي، مثل دعاء إبراهيم عليه السلام، إذ قال الله تعالى على لسانه: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[8] أي ثناء

(١)مريم: ٩٧.

(٢)الدخان: ٥٨.

(٣)الروم: ٢٢.

(٤)المائدة: ٧٨.

(٥)القصص: ٣٤.

(٦)طه: ٢٧ ـ ٢٨.

(٧)الشعراء: ١٢ ـ ١٣.

(٨)الشعراء: ٨٤.

ومدحا على لسان الأقوام التي ستأتي بعده، وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك، فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه [1] ففي كل صلاة من الصلوات الخمسة يثني عليه المصلي في التشهد الأخير، ومثلها هذه الآية التي تتحدث عن منزلة إبراهيم عليه السلام وأسرته، وما حباه به الله من نبوة ومال وأولاد، وما يتمتع به من ثناء حسن على ألسنة العباد، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [2].

٤) ويرد اللسان في صيغة الجمع، ويدل عادة على الكلام الكاذب والبذيء والجارح، فالمنافقون كانوا في وقت السلم يسلقون المسلمين: أي يؤذونهم بالكلام الجارح، كما جاء في هذه الآية ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [3].

وتتحول الألسنة إلى وسائل للافتراء على الله، واللجوء إلى التحليل والتحريم؛ اعتمادا على الهوى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [4].

ويصبح اللسان في الآية الآتية مجرد راو للكلام يسمعه هذا فيذكره للآخر، من غير تثبت أو تدبر، ويتعلق الأمر هنا بحادثة الإفك التي اختلقتها الأفواه، ولا وجود لها في الواقع، إذ هي مجرد كذب وافتراء، قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [5].

ويلجأ اليهود إلى ليّ ألسنتهم بالإنجيل كناية عن التحريف « وأصل اللي، فتل الحبل والميل به عن الاتجاه المستقيم، والمراد هنا تحريف التوراة، وتوجيهها إلى ما يريدون » [6] ومعلوم أن اليهود حرفوا التوراة، ويتلونه على أنه من كتاب الله، حتى

---

(١)الأشقر: زبدة التفسير ص ٤٨٥.

(٢)مريم: ٥٠.

(٣)الأحزاب: ١٩.

(٤)النحل: ١١٦.

(٥)النور: ١٥.

(٦)عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص ٧٥.

يظن السامع أنه مما أنزل الله على موسى، وليس هو منه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (1) فهم يميلون بألسنتهم عن الحق، بعد تحريفهم للكتاب المنزل، إمعانا منهم في الضلال والفساد ولجوء اليهود إلى لي اللسان القصد منه، تحويل الكلام عن ظاهره، إلى معنى الاستهزاء والسخرية، فهم يخاطبون الرسول بألفاظ ظاهرها التأدب واللطف، وفي باطنها ـ وهذا الذي يريدون ـ الدعاء بالشر، ووصف الرسول بصفات تنزه عنها ﷺ كالرعونة، وقد حكى عنهم القرآن في قوله تعالى ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ (2).

ولا تلوى الألسنة فقط، وإنما تصف الكذب، وتبرره على أحسن وجه، قصد إخفاء الحقيقة، وإمعانا في التمويه والخديعة والكذب في قولهم أن لهم درجة عند الله، وهي الجنة، قال جل وعلا ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ (3).

ولكن هذه الألسنة، إن لوت عنق الحقيقة، وزخرفت الكذب، فإنها يوم القيامة تشهد على أصحابها: ذلك أنه في هذا اليوم لا كذب، ولا تغطية للحقيقة، فالله ينطق الألسنة وغيرها من الأعضاء، تشهد بالصدق، وتعلن عن الحقيقة، لا مواربة فيها ولا خداع، وتقول ماذا عمل هؤلاء الناس في حق الله تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (4) فقد ذهب ذلك اليوم الذين كانوا يقولون فيه بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وهو صنيع المنافقين من الأعراب، الذين كانوا يسكنون حول المدينة، فقد استنفرهم الرسول ليقوموا معه بالغزو، فاعتذروا،

---

(1) آل عمران: ٧٨.

(2) النساء: ٤٦.

(3) النحل: ٦٢.

(4) النور: ٢٤.

وتظاهروا بطلب الغفران عن هذا التخلف، يقولون ذلك بألسنتهم، أما قلوبهم فقد كانت عامرة بالشك والنفاق، وعدم الثقة في الله، فألسنتهم : أي قولهم في واد، وقلوبهم في واد آخر، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1] وتوجد في هذه الآية مقابلة بين قول الألسنة، وما تضمره القلوب أو بين الظاهر والباطن.

وتتحول الألسنة إلى سياط تدمي القلوب، وتصك الآذان، كما أن الضرب يدمي الأجساد،فالألسنة تمتد وتطول بالشتم والسب، والأيدي تمتد لضرب المؤمنين، لإرجاعهم إلى حظيرة الكفر والعصيان، قال تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ﴾[2] .

٥) ويحل محل اللسان في القرآن الفم، وهو الجهاز الصوتي العام، واللسان جزء منه، أما لماذا يصبح الفم هو الذي يقول ؟ فذلك ضرب من التشنيع والتفظيع في الأسلوب القرآني، فالمتأمل في الفم، وقد جاء في صيغ الجمع (١٢ مرة) يلاحظ أن هذه الآيات التي ورد فيها لفظ الفم تعبر عن غضب الله وسخطه على المعاندين والجاحدين، وبعض هذه الآيات يعبر عن خروج الكلام من الفم فقط، ولا تأثير له في واقع الأمر، وبعض هذه الآيات يقابل بين ما يلفظ من كلام، وبين ما عقد القلب عليه، من كفر وعناد ونفاق، ففي الآيات الأولى نجد الكلام لا يستند إلى دليل وهو« قول غير موافق لما في العلم، ولكنه مجرد تصور، لأن أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول، فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه »[3] من ذلك هذه الآيات:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[4] .

(١)الفتح:١١.
(٢)الممتحنة: ٢.
(٣)الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ج ١٨ ص٧٨.
(٤)النور: ١٥.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾[1].

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[2].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[3] ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[4].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[5].

وقد لا حظ الراغب الأصفهاني في خصوص الفم في صيغة الجمع «أن كل موضع علق الله تعالى حكم القول بالفم فإشارة إلى الكذب، وتنبيه أن الاعتقاد لا يطابقه»[6].

أما المجموعة الثانية من الآيات التي جاء فيها الفم في صيغة جمع الغائب، فتبدو فيها المقابلة بين الفم والقلب: ذلك أن الأفواه تعلن خلاف ما تنطوي عليه القلوب، من بغض وكفر ونفاق، قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[7] وقال أيضا:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[8].

﴿لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[9].

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) التوبة: ٣٠.

(٣) التوبة: ٣٢.

(٤) الكهف: ٥.

(٥) الصف: ٨.

(٦) الراغب: المفردات ص ٥٨٤.

(٧) آل عمران: ١١٨.

(٨) آل عمران: ١٦٧.

(٩) المائدة: ٤١.

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾[1] .

وتعبر الأفواه عن الغيظ مما جاء به الرسل الرافضة دعوتهم لعبادة الأوثان والأصنام، كما في هذه الآية ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[2]

وتكمم الأفواه يوم القيامة، وتصبح خرساء لا تتكلم، وتنطلق الأيدي التي تعبر عن القوة والبطش واجتراح الذنوب، ويشهد اللسان باعتباره جزءا من الفم أولا، ووسيلة للنطق ثانيا على أعمال الإنسان ، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[3] .

وهكذا يتبين لنا ثراء المعاني التي تطلق في القرآن على اللسان، ويأتي هذا الثراء من المعاني الحافة بهذه اللفظة أولا، ومن لهجة الخطاب ثانيا، فاللسان إذا كان المراد به اللغة، تكون الألفاظ المجاورة هي الإبانة والفصاحة والصدق واليسر والانطلاق، أما إذا أريد به الملفوظ من الكلام الحسن، فتكون النعوت هي الثناء والمدح، ويكون اللفظ في صيغة المفرد، وإذا كان الملفوظ كذبا وبهتانا، وفيه أذى للمؤمنين، تكون الألفاظ المجاورة هي السلق والحدة والكذب والتلقي واللي، ويكون اللسان في صيغة الجمع ، زيادة في التفظيع والتشنيع، ما على مستوى أسلوب الخطاب، فنجد بعض الآيات تتسم لهجتها بالهدوء واللطف، كالإخبار عن نزول القرآن باللغة العربية، وهي لغة قوم الرسول ﷺ ، أو طلب موسى عليه السلام من ربه أن يرزقه الإبانة والفصاحة، حتى يؤدي رسالته على أحسن وجه، أو دعاء إبراهيم عليه السلام، أن يكون له ولذريته الثناء والذكر الحسن من بعده .

ثم تتحول لهجة الخطاب إلى الغضب والسخط ، عند الحديث عن المرجفين والمنافقين، ومحرفي الكتب المنزلة، والمناوئين للرسول وأصحابه، والساخرين منهم، وما يلصقونه من تهم كاذبة، وما يبدونه من تهكم لاذع، ويذكر القرآن، ما ينتظر

(١)التوبة: ٨.

(٢)إبراهيم: ٩.

(٣)يس: ٦٥.

هؤلاء من عذاب، يوم تصبح الألسنة، شاهد عدل، فتنطق بالحق والإنصاف، قال تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [1] .

وقد دعانا الرسول إلى حفظ ألسنتنا، وأن لا نقول إلا ما فيه الخير، وأن نجنبها الهذيان واغتياب الناس، وذكر مساوئهم، من ذلك أن معاذ بن جبل سأل الرسول ﷺ عن عمل يدخله الجنة ويباعده عن النار، فدعاه إلى أن يعبد الله،لا يشرك به شيئا، وأن يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان،إلى أن قال له:« ألا أخبرك برأس الأمر وعموده، وذروة سنامه» قال : بلىَ يا رسول الله، قال: «رأس الأمر، الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله»قلت : بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه ثم قال: «كف عليك هذا» قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال: «ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم »(رواه الترمذي) .

وأدار الرسول حوارا بين أعضاء الجسم وبين اللسان، فعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان (أي تذل وتخضع له) تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا »(رواه الترمذي).

١٠) الوريد

الوريد، مفرد الوريدين، وهما عرقان تحت الودجين، والودجان عرقان غليظان عن يمين ثغرة النحر ويسارها، وإذا قطعهما الذابح فلا يبقى للحيوان حياة، وقد ذكر في القرآن لبيان قرب الله للإنسان ، وهو أشد قربا إليه من وريده،الذي هو من مكونات جسمه وروحه، كناية عن أن الله قريب من العبد، فهو على دراية تامة بما يفكر فيه الإنسان، بل وما توسوس به نفسه، فالله أقرب للإنسان من هذا العضو، أي أن الله لا يخفى عليه شيء مما في صدر الإنسان، وما يخطر على باله، وما تحدثه به

(١)الأنعام: ١١٥ .

نفسه، وكيف لا يعلم بما تخفي القلوب، والله قد خلقها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (١) ، وذكر الوريد يعني الحياة، فحياة الإنسان بيد خالق هذا الوريد، فإن شاء ينخرم الجسم، وتنتهي منه كل حركة ونشاط، وإذا انتفت الحركة والنشاط كان الموت كما سنرى.

١١) العنق

العنق ، وهو الرابط بين الرأس وسائر الجسد ، وقد ورد الحديث في القرآن خاصا بالعنق يوم القيامة، وكيف يعامل الله أصحابها، ما عدا آية واحدة، تحث على الإنفاق بدون إسراف أو تقتير، وعبر عن التقتير بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾(٢) أي لا تجعل يدك مضمومة إلى عنقك بالغل، وهو القيد الذي يكون من حديد، والمقصود لا تكن بخيلا، وعبر عن التبذير بقوله ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ وبسط اليد ـ كما جاء في المصحف الميسر ـ« كناية عن الإنفاق إلى حد الإسراف »(٣) .

وبقية الآيات تبرز ما يلاقيه المكذبون من عذاب في أعناقهم يوم القيامة ، وبداية فإن أعمال الإنسان يعلقها الله في عنقه، وعبر عن هذه الأعمال بالطائر« وقد كانت العرب تطلق الحظ على الطائر، وعلى النصيب المترتب على العمل، وعلى العمل نفسه ، كأنه يطير إلى صاحبه من عش الغيب ، والكلام كناية عن أن أعمال الإنسان تلازمه ملازمة القلادة للعنق، ولا تفارقه »(٤) .

قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾(٥) .

---

(١)ق:١٦.

(٢)الإسراء : ٢٩.

(٣)عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ص ٣٦٨.

(٤)نفس المرجع ص ٣٦٦.

(٥)الإسراء : ١٣.

وأعمال الإنسان مسجلة في كتاب، وهذا الكتاب عندما يفتحه صاحبه، يجد أعماله كلها بخيرها وشرها ،أما المؤمنون فيفرحون ، وأما المكذبون فيتضجرون قائلين : ﴿يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ (١) نعم ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٢).

ويساق المكذبون زمرا، والأغلال في أعناقهم، ثم يسحبون ويدفعون إلى النار، وهل يجزون إلا ما كانوا يعملون، وكلما ذكرت الأعناق في القرآن ذكرت معها الأغلال، إلا في آية واحدة، وهي قوله تعالى : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ (٣) أي أن الله لو شاء لأنزل معجزة تلجئهم إلى الإيمان، فتظل أعناقهم منقادة لها رغم أنفهم.

مشهد مرعب، الأغلال في الأعناق، هكذا حال المجرمين ، يسحبون كالحيوانات، ولعل الحيوان أحسن حالا منهم، من يدري ؟ فحافظ على سلامة عنقك، وتزود للعبور إلى اليوم الآخر، وزادك هو التقوى.

١٢) الجيد

الجيد هو العنق، وموضع القلادة بالنسبة للمرأة، وهو الرابط بين الرأس والجذع، والعنق للرجل، والجيد للمرأة، وقد توعد الله أم جميل، أروى بنت حرب ابن أمية أخت أبي سفيان بالنار، فقد كانت مع زوجها أبي لهب من أشد الناس عداوة للرسول، «كانت تسعى بالإفساد بين النبي وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذر على بابه، فينحيه» ويقول: « أي جوار هذا يا بني عبد مناف»؟ فلا عجب إذا كان الله عز شأنه توعدها بالنار، كما توعد زوجها » (٤)

(١) الكهف : ٤٩.
(٢) نفس الآية السابقة.
(٣) الشعراء : ٤.
(٤) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ج ١ ص ٢٩٢.

قال تعالى في شأنها وشأن زوجها : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1] .

ولما سمعت امرأة أبي لهب ما نزل فيها، وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله ﷺ ، وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر[2] من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن النبي، فلا ترى إلا أبي بكر، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مذمما عصينا، وأمره أبينا، ودينه قلينا

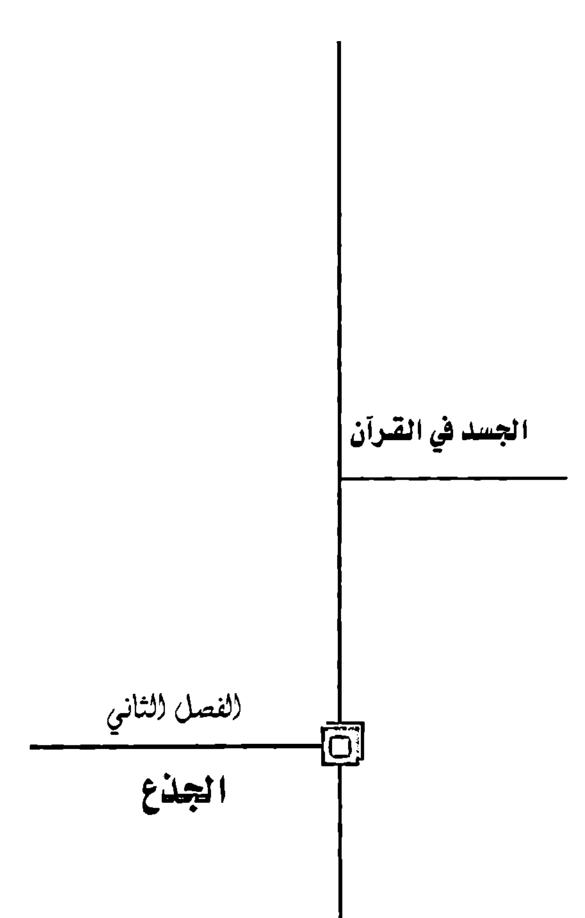
وانصرفت ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك ؟ فقال: « ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني » وكانت قريش، إنما تسمي رسول الله ﷺ لشدة بغضهم له، وكراهيتهم ذكر اسمه على لسانهم « مذمما » بدل محمد، ثم يسبون مذمما، فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: « ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش، يسبون ويهجون مذمما، وأنا محمد » ويعتبر هذا من منن الله عليه، وهكذا صرف الله عنه وصول السباب باللسان، كما صرف عنه وصول الأذى بالفعال، فسبحان الله الكبير المتعال »[3] .

وستجازى هذه المرأة على ظلمها وإيذائها للنبي، بأن يوضع يوم القيامة حبل من مسد، كقلادة في عنقها، عذابا لها في جسدها ، جزاء صنيعها، والمسد هو الحبل المفتول فتلا شديدا، ويكون من الليف وغيره، فاحرصي أيتها المرأة على سلامة جسدك، وحارسك الأمين هو التقوى، والخوف من الله في السر والعلن.

(١)سورة المسد.

(٢)حجر ملء الكف.

(٣)أبو شهبة مرجع مذكور ص ٢٩٣.


الجسد في القرآن
الفصل الثاني
الجذع

الجذع، هو ما عدا الرأس والأطراف، أو اليدين والرجلين، وسنعود إلى الأطراف فيما يأتي، أما الجذع فلم يذكر القرآن منه إلا القليل، وحتى المذكور منه ليس هو المقصود في حد ذاته، مثل الصدر، فهو يحتوي على جارحة، وعضو عامل في جسم الإنسان، نعني به القلب، هذا الذي به يسعد به الإنسان أو يشقى.

١) الصدر

الصدر مقدم كل شيء، يقال صدر النهار، وصدر القوم رئيسهم، وصدر الإنسان هو الجزء الممتد من أسفل العنق إلى الجوف، وهو عبارة عن قفص يحتوي خاصة على القلب، وقد خلق الله هذا الصدر لحماية ما بداخله من أعضاء، بحيث لا يلحقها الأذى، إلا إذا كانت الصدمة قوية عندها، فلا مفر من تعرض هذه الأجزاء إلى التلف والانخرام، والصدر مع الرأس وبقية الأطراف، تجعل من الإنسان غاية في التنسيق العجيب، والجمال الرائع، وهل يوجد أجمل من الإنسان على وجه الأرض ؟ لقد أعطاه الله جمال الخلقة، وكرمه بالعقل والنطق، والتعبير عن أحاسيسه ومشاعره بوسائل مختلفة، منها الشعر والموسيقى والرسم وغيرها.

ولم يتحدث القرآن عن الصدر بوصفه جزءا من مكونات جسم الإنسان، وإنما تحدث عنه بوصفه حاميا للقلب والفؤاد والرئتين وغيرهما من سائر الأعضاء العاملة في الجسد.

٢) القلب

القلب كما يقول عنه العلم « عضو عضلي أجوف يستقبل الدم من الأوردة، ويدفعه في الشرايين، قاعدته إلى أعلى معلقة بنياط في الجهة اليسرى من التجويف الصدري، وبه تجويفان: يساري به الدم الأحمر، ويميني به الدم الأزرق المحتاج إلى التنقية، ويكل تجويف تجويفان فرعيان يفصل بينهما صمام، ويسمى التجويف العلوي الأذين، والتجويف السفلي البطين ».

هذا وصف مبسط يتعلمه أطفال المدارس الابتدائية عن القلب، ولكنهم هل

يعرفون من يحول الغذاء إلى دم، والدم يتحول إلى العروق، ويتجه إلى القلب، ثم يضخه القلب إلى سائر البدن، دون أن يترك نقطة منه؟ أو كيف يتحول الغذاء إلى لبن في ثدي الأم، أو العشب الذي تأكله البقرة، يتحول لبنا، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [1] «أي اعتبارا وعظة، تدل على قدرة الخالق، حيث جمع في الشيء الواحد بين المشروب الطيب، والمأكول اللذيذ، وبين القذر الضار»[2].

إذا توقف القلب عن نشاطه، جاء الموت، وذكر القرآن الشريان الرئيسي الذي يغذي جسم الإنسان بالدم النقي الخارج من القلب، وسماه الوتين، وعند بعض المفسرين «نياط القلب، وهو عرق متصل به إذا انقطع مات صاحبه»[3] قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [4] أي لو أنشأ محمد القرآن من عنده، ثم زعم أنه من عند الله، لنال من الله عقابا شديدا، ولقطع نياط قلبه، كناية عن إهلاكه وموته، وهذا لن يقع لأن محمدا لم يفتر هذا القرآن، ولم يكن في مقدوره أن يأتي به من عنده.

إن كل عضو، وكل جارحة، أو حتى نقطة في الجسم، تدل على قدرة اللطيف الخبير، وأن العقل لا يصدق أن التفاعلات الكيميائية أو المصادفة العجيبة، هي التي تحدث ما نراه من نشاط الأعضاء، وعملها الذي لا يهدأ إلا بالموت، إن الذي خلق الإنسان من نطفة، خلق فيه أعضاء تعمل حسب مشيئة الله، المعتني بكل مخلوقاته عناية فائقة، وكلنا ودائع له، يستردها متى شاء، ولكن الإنسان كثيرا ما ينسى أو يتناسى، وكثيرا ما يركب رأسه ويتحدى خالقه ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

---

(١) النحل: ٦٦.

(٢) عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص ٣٥٤.

(٣) السيوطي: تفسير الجلالين ص ٧٦٤ وعبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص ٧٦٤.

(٤) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦.

﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾[1]

وللقلب في القرآن أكثر من اسم، فهو الصدر، وسمي كذلك لحلوله بالقفص الصدري، وقد أشار القرآن إلى هذا الحلول، فقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[2] .

و قال تعالى أيضا: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾[3] .

ويسبق الصدر في حال الجمع صيغة المبالغة(عليم) وهي من أسماء الله الحسنى، متبوعة بـ (ذات) في (١٧آية) أو مسبوقة بفعل المضارع (يعلم) وتدل على خفايا النفوس، التي لا يطلع على أسرارها إلا الله سبحانه وتعالى، مثل ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[4] أو ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[5] .

وهنا يكون المعنى حسب السياق، وعادة ما يكون النية الحسنة أو السيئة، أو الحقد والبغض، أو الكفر والنفاق، وسائر ما تكنه القلوب من حقد وضغينة.

ويبدو أن الصدر غير المسبوق بذات، أوسع مدى من القلب، فإن كان القلب يشير إلى العقل والعلم، فإن الصدر يشير إلى هذا المعنى، والى سائر القوى الأخرى في الإنسان كالشهوة والغضب والهوى ونحوها[6] .

ولنا أن نتبع معاني الصدر في كلام الله ، بالاعتماد على هذه الأبعاد التي يعبر

---

(١)عبس: ١٧ ـ ٣٢.

(٢)الحج: ٤٦.

(٣)آل عمران: ١٢٩.

(٤)المائدة: ٧.

(٥)غافر: ١٩.

(٦)انظر الراغب الأصفهاني: المفردات ص ٤٠٨.

عنها الصدر، بالإضافة إلى المعنى الأصلي، وهو القلب، فقوله تعالى : ـ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [1] أي وقع التميز بين الخير والشر، أو «المراد جمع من صحف الملائكة، وأبرز ما انطوت عليه الصدور من نيات حسنة أو سيئة» [2] .

ـ ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [3] أي رضي بالكفر واطمأنت نفسه إليه، فهنا وقع الجمع بين اعتقاد القلب، ورضى النفوس

ـ ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [4] .

أي لا تشعر أيها الرسول بالضيق في صدرك، والمراد هنا القلب، وشعوره بالضيق ناتج عما سيلاقيه من مشاق وجهد، أمام تكذيبهم له، ومخافة إيذائهم له، واتهامهم بما يتألم منه، كقوله إنه مجنون أوكاهن، ويدخل في هذا السياق قوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [5] وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [6] .

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [7] .

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [8] .

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [9] .

---

(١)العاديات: ١٠.

(٢)عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص ٨١٨.

(٣)النحل: ١٠٦.

(٤)الأعراف: ٢.

(٥)هود: ١٢.

(٦)الحجر: ٩٧.

(٧)الشرح: ١.

(٨)الأنعام: ١٢٥.

(٩)الزمر: ٢٢.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾[1] .

فما هو المقصود بالشرح في هذه الآيات الثلاث ؟

الشرح يعني اتساع الصدر، والإقبال على الإسلام بصدر منشرح، سئل الرسول عن معنى الآية الأولى: كيف ينشرح صدره يا رسول الله ؟ قال « نور يقذف فيه، فينشرح له وينفسح» قالوا: فهل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت »[2]

فالمعنى هو الانشراح، ويعني به الدخول في دين الإسلام ، ويقابله في بقية الآية شدة الضيق إلى درجة الاختناق ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[3] كناية عن فراغ الصدر أو القلب من الهداية والإيمان ، أما الآية الثانية، فهي في قالب استفهام إنكاري المفيد للنفي، أي لا يمكن أن يستوي المسلم الذي اهتدى بنور الإيمان، مع من امتنع عن الإيمان، ورفض الدخول في الإسلام، فالأول يفيض الله عليه من نوره بسبب ذلك الشرح، والآخر في ظلمات الضلالة، وذلك بسبب قساوة قلبه وغلظته، ومن كان قلبه قاسيا عن ذكر الله، فلا ينشرح صدره، ولا يطمئن قلبه، وقد وضح الجزء الثاني من الآية معنى الصدر بالقلب ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[4] .

وطلب موسى من ربه في الآية الثالثة أن يوسع صدره، ليتحمل سخرية المعارضين، وما يلحقونه به من أذى، ككل الأنبياء الذين لا يجدون من أقوامهم إلا الصدود والسخرية والطرد، وغيرها من أنواع الأذى .

فالشرح في الآيات الثلاث جاء بمعنى توسع الصدر وقبوله الإيمان بالقرآن،

---

(١)طه: ٢٥.

(٢)رواه ابن جرير وعبد الرزاق وغيرهما.

(٣)الأنعام :١٢٥.

(٤)الزمر: ٢٢.

ومن آمن بالقرآن ينشرح قلبه، وتطمئن نفسه، ومن أنكر الإيمان بالرسول والقرآن فإن صدره يضيق كناية عن قساوة قلبه وشدته، والشدة والقسوة لا يتسع لهما الصدر

ـ ﴿ وَيَضِيقُ صَدۡرِى ﴾[1] .

الكلام هنا على لسان موسى عليه السلام، عندما أمره ربه بأن يتوجه إلى فرعون، ليدعوه هو وقومه إلى التوحيد، والكف عن الطغيان والتجبر، فأخذ موسى يعدد المصاعب التي سيلاقيها، إذا ذهب إلى فرعون، منها أن صدره يضيق: أي يغتم إذا واجهوه بالتكذيب والإنكار:

ـ ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٍ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2]

راوح القرآن في هذين الآيتين بين الصدر والقلب، ففي الآية الأولى يشفي القتال قلوب بعض المؤمنين الذين لم يشاركوا من قبل، وكأنهم في شوق إلى لقاء الأعداء، والمشاركة في القتال تشفي قلوبهم التي لم تكن مطمئنة بعدم مشاركتها في القتال، في الغزوة السابقة، وبالقتال يذهب سبحانه وتعالى « غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من نقض العهد »[3] .

والمراوحة بين القلب والصدر تظهر في الآية التالية:

ـ ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾[4] .

فالله يختبر الصدور أي القلوب، ليظهر للناس ما في القلوب من الإخلاص أو النفاق، أما هو سبحانه فهو﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

ـــ ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ

(١)الشعراء: ١٣.

(٢)التوبة: ١٤ ـ ١٥.

(٣)الأشقر: زبدة التفسير ص ٢٤٢.

(٤)آل عمران: ١٥٤.

﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1].

أي لو كان المكذبون بالبعث حجارة أو حديدا، أو أي شيء يكبر في صدورهم: أي تصوره عقولهم، لبعثهم الله الذي خلقهم أول مرة، فالصدر هنا بمعنى العقل، والقلب هو مصدر العقل في القرآن، أو أن العقل والقلب يتساويان في القرآن، ويتناوبان المكان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾[2].

فالذين لم يقاتلوا مع المسلمين، ولم يقاتلوا مع قومهم، حصرت صدورهم أي: ضاقت ولم ترغب في القتال مع الفريقين، رغبة منهم في عقد الصلح مع المسلمين، فهؤلاء كالذين أبرموا الصلح ،لا يمكن قتالهم أو التعرض لهم بأذى، وبقية الآية تشير إلى هذا المعنى، قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[3].

ـــ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[4].

أخرج ابن جرير: كان أحدهم إذا مر بالنبي ﷺ ثنى صدره لكي لا يراه[5]

فثني الصدر، وانحناء الظهر، ونكس الرؤوس، حقيقة «فقد كانوا يحاولون طي صدورهم على بطونهم، ليخفوا حيرتهم وحقدهم اللذين يظهر أثرهما على وجوههم»[6].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ

(١) الإسراء: ٥٠ ـ ٥١.

(٢) النساء: ٩٠.

(٣) النساء: ٩٠.

(٤) هود: ٥.

(٥) السيوطي: أسباب النزول ص ١٥٦.

(٦) عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص ٢٨٤.

﴿ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾[1].

الكبر هنا التكبر و الطمع في التفوق على الرسول والانتصار عليه، وقد حملهم الشعور بالكبر على تكذيب الرسول، وقد أكد القرآن أنهم لم يبلغوا هذا التفوق على الرسول: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[2].

المعنى أن المنافقين أو اليهود، يخافون المسلمين أكثر مما يخافون الله، لتأخير عذاب الله عنهم، وهذا يدل على جبنهم، وخبث عقيدتهم، وإلا فإن الله هو الذي يخافونه، والله وحده هو الذي سلط المسلمين عليهم فهل يبقى الصدر هو الصدر يوم القيامة، كما كان في الدنيا، لننظر في هذين الآيتين:

ـ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾[3].

ـ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾[4].

الحقد أو الغل تنغيص على العيش في الدنيا، وإذا زال بين الناس صفت القلوب، واطمأنت النفوس، والجنة ينعدم فيها التشاحن والبغضاء، فلا بغض فيها ولا حقد، رغم تفاوت المنازل وتفاضلها.

وهكذا فإن الصدر فضاء شاسع، لمختلف الأهواء والأغراض، جمعها القرآن وأبان عن مكنون الصدر، وكيف لا يحيط بها من خلقها، و هو بكل شيء محيط.

ومن أسماء القلب الفؤاد، ويقال له الفؤاد ـ حسب الراغب الأصفهاني ـ إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي التوقد[5] يقال تفأدت النار أي: تحرقت وتوقدت، فالفؤاد بهذا المعنى القلب الذكي الفطن، ويرى الشيخ عبد الجليل عيسى، بالاعتماد على

---

(١) غافر: ٥٦.

(٢) الحشر: ١٣.

(٣) الأعراف: ٤٣.

(٤) الحجر: ٤٧.

(٥) المفردات ص ٥٨.

الراغب الأصفهاني، أن الفؤاد «لا يطلق على القلب، إلا في حالة توقده، وشدة يقظته»[1] ويمكن أن نقسم المادة الواردة عن الفؤاد في القرآن كما يلي:

الله يذكر عباده، ويمن عليهم، بخلق هذه الجارحة التي تساعدهم على العيش في هذا الكوكب الأرضي، وبالقلب ميزهم عن سائر مخلوقاته، فلم لا تنطلق ألسنتهم بالثناء والشكر لخالق هذه الجارحة ؟

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2] .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[3] .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[4] .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ﴾[5] .

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾[6] .

جارحة القلب، وغيرها من الجوارح الأخرى، يسأل صاحبها عن استعمالها، فإن استعملها فيما يفيده، ويفيد بني الإنسان نال الثواب، وإن استعملها في مضرة العباد نال العقاب، وتسأل هذه الأعضاء ، ومنها القلب يوم القيامة، فينطقها الله، وتجيب عما فعله صاحبها:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[7]

لقد جعل الله الفؤاد للإنسان، ليتفكر في خلق الله، ويصل بقلبه إلى أن الله واحد

(١)عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص ٥٠٧.

(٢)النحل: ٧٨.

(٣)المؤمنون: ٧٨.

(٤)السجدة: ٩.

(٥)الأحقاف: ٢٦.

(٦)الملك: ٢٣.

(٧)الإسراء: ٣٦

لا شريك له، وأن هذه الأوثان من عمل الشيطان، ولكن مشركي قريش، ومن شابههم في كل عصر ومصر عطلوا هذه الجارحة فيما خلقت له، وأصروا على الشرك، وتمادوا في السخرية من الرسول والقرآن، ولم تفدهم أفئدتهم في شيء:

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾[1].

ودفعهم الشيطان إلى الميل إلى« زخرف القول » من كلام أهل الباطل، عوض الإستماع إلى كلام الله، وسولت لهم شياطين الإنس والجن حب الدنيا، فرضوا بذلك لأنفسهم، وأقبلوا على الآثام يعبون منها عبا، ويقترفون منها ما يريدون: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ﴾[2].

هؤلاء الذين « لا يؤمنون بالآخرة » يقلبون يوم القيامة على لهب النار، فتشوي أفئدتهم أي قلوبهم وأبصارهم، « وألمها أشد من ألم غيرها للطفها »[3] لأنهم لم يؤمنوا في الدنيا بما أنزل على الرسول، وقد أمهلوا، والله يمهل ولا يهمل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[4]

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾[5].

و﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي تصل النار إلى أعماق قلوبهم« وخص الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم، لأنها محل تلك المقاصد الزائغة، والنيات الخبيثة، وسوء الأخلاق، من الكبر، واحتقار أهل الفضل »[6].

---

(١) الأحقاف: ٢٦.

(٢) الأنعام: ١١٢ ــ ١١٣.

(٣) السيوطي: تفسير الجلالين ص ٨٢١.

(٤) الأنعام: ١١٠.

(٥) الهمزة: ٦ ــ ٧.

(٦) الأشقر: زبدة التفسير ص ٨٢٢.

والله يثبت فؤاد الرسول: أي يطمئنه، ويؤيد يقينه، بعرض قصص الأنبياء والمرسلين وما لاقوه من أقوامهم، من جحود ونكران، وسخرية وتكذيب، أو يقوي قلبه بتنزيل القرآن مفرقا، حتى يستوعبه، ويسهل عليه حفظه:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾(1).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾(2).

ويعبر القرآن عن فراغ الفؤاد، واشتغاله بأمر مهم، فأم موسى لما التقط آل فرعون ابنها أصبح لا هم لها إلا التفكير في مآل ولدها، حتى كادت أن تقول لأهل فرعون: أن الذي التقط من اليم هو ابنها، من شدة الخوف والحزن على ابنها، لولا أن زرع الله الطمأنينة في قلبها:

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(3).

والقلب يسبق البصر في الرؤية: فالرسول قد رأى جبريل بعينيه، ولم يكذب قلبه بصره فيما رأى(4) فكيف يمكن مجادلته فيما رأت عيناه:

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾(5).

الصدر وما يخفيه، والفؤاد وغيرهما، أسماء للقلب، هذه المحطة التي يلتقي فيها الدم نقيا، ثم يوزعه على كامل الجسم، وهو كذلك مركز للفكر والعاطفة، ومختلف النزعات الخيرية والنزعات الشيطانية، وما سمي قلب إلا لكثرة تقلبه بين الخير والشر، وبين الحب والكراهية، وغيرها مما سنراه فيما يلي:

---

(1) هود: 120.

(2) الفرقان: 31.

(3) القصص: 10.

(4) انظر عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص 701.

(5) النجم: 11 ـ 12.

القلب هو ذلك العضو المختفي في الجانب الأيسر من الصدر، وقد رأينا وصف العلم لهذه الجارحة أعلاه، وفي اللغة فإن مادة (قلب) تدل على كثرة التقلب، «والتغير من حال إلى حال » ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به، من الروح والعلم والشجاعة، وغير ذلك »[1] وقال الراغب: « حيثما ذكر الله تعالى القلب[2] فإشارة إلى العقل والعلم »[3].

فهل العلم والإدراك والعقل بصفة عامة مقره القلب ؟ يذكر الطاهر بن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[4] أن « المراد من القلب هنا الألباب والعقول، والعرب تطلق القلب على اللحمة الصنوبرية، وتطلقه على الإدراك والعقل، وهو المراد هنا، ومقره الدماغ لا محالة، ولكن القلب هو الذي يمده بالقوة التي بها عمل الإدراك »[5].

و(هنا) تعني بالطبع أن للقلب في القرآن معاني كثيرة ومختلفة، نحاول فيما يأتي أن نبرز مختلف مستويات هذه المعاني:

ـ معاني لا علاقة لها بالإدراك والعقل، منها الروح، وعلاقة الروح بالقلب عضوية، فإذا توقف القلب عن الحركة، خرجت الروح من الجسد، وانتهت حياة الإنسان في الدنيا، فالقلب والروح صنوان، يتوقف وجود الواحد منهما على الآخر، وقد عبر القرآن عن تبادل الأدوار بين الروح والقلب، فمن المعتاد أن الروح هي التي تخرج من الحنجرة، أو الحلقوم، وليس القلب، ولكن القرآن أراد أن يعبر عن شدة الخوف والرعب ، كما رأينا أعلاه، الذي أصاب المسلمين في غزوة الخندق، قال

---

(١)الراغب الأصفهاني: المفردات ص ٦٢٠.

(٢)ذكر القلب في القرآن ١٣٢ مرة.

(٣)نفس المصدر ص ٤٠٨.

(٤)البقرة: ٧.

(٥)التحرير والتنوير ج ١ ص٢٥٥.

تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[1] .

ـ القلب هو موطن الشجاعة والجبن، فقد رزق الله قلوبا تثبت أمام الشدائد، ولا تتزعزع، ولو تحزبت كل القوى ضده، وأرادت النيل منه، وقد يرزق الله في أوقات العسر بعض الناس الثبات في القتال، كما وقع للصحابة في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾[2] أي «تثبت به شجاعتكم، ويزول خوفكم»[3] ويقابلها قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[4] .

ـ القلب يطمئن ويسكن، ولا يضطرب كالنفس، عند حصول الأمر المرغوب فيه، كانتصار الرسول وصحبه، وهم قلة، على عدوهم، وهو في كثرة ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[5] وقد طلب الحواريون من عيسى أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء لتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾[6] ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾[7] وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[8] .

ـ يطلق القلب و يعني به النفس القابلة للحفظ والفهم، وهو إطلاق معنوي، كقوله تعالى مخاطبا الرسول: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

(١)الأحزاب: ١٠.

(٢)الأنفال: ١٠.

(٣)الراغب الأصفهاني: المفردات ص ٦٢٠.

(٤)الأحزاب: ٢٦.

(٥)آل عمران: ١٢٦.

(٦)المائدة: ١١٣.

(٧)الفتح: ٤.

(٨)الرعد: ٢٨.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] .

ـ القلب موطن جميع الصفات الحسنة، ومكارم الأخلاق النبيلة، وكل ما يهم المفردات الخاصة بفضائل الأخلاق، وأعمال الخير، كما أنه موطن الأخلاق السيئة، كالخداع والنفاق والغدر، وغير ذلك مما يحتويه هذا المعجم الخاص بالدنايا، ورذائل الأخلاق، فالقلب إذن اسم للإدراك والانفعالات النفسية، والنوايا الحسنة والسيئة، ويبقى أن ننظر إلى القلب بوصفه عقلا يفكر، وفكرا يدرك العلاقات بين الأشياء، ويحاول فهمها، والسيطرة عليها لفائدته.

ـ القلب فكر يعقل ويدرك، وينظر ويقارن ويفقه، أي هو محل التفكير، هكذا يبدو من خلال القرآن، والحق أنه لولا القلب ما كان الدماغ ليعمل عمله الخاص بإدراك المعقولات، وفهم النظريات المجردة فهما جيدا، فالقلب هو الذي يمد الدماغ بالدم، هذه المادة الحيوية لعمل الجسم كله، ومنها الدماغ، وقد خلق الله لنا قلوبا أي عقولا نميز بها، ونختار ما يصلح لنا، وننظر مثلا :هل أن الأصنام والأوثان تنفعنا إذا قمنا بعبادتها ؟ وهل تضرنا إذا امتنعنا عن التمسح بها وتقديسها؟ وإذا جاء رجل وقال: أنا رسول الله إليكم، ولم يعرف عنه من قبل الكذب، واشتهر بالأمانة والصدق، فهل نكذبه ؟ أم ننظر بعقولنا إلى ما يقوله لنا، ثم نحكم على صدقه أو كذبه ؟

لقد دعا القرآن إلى النظر والتفكر في ملكوت السماوات والأرض، وليس من غايتنا أن نكتب عن أساليب القرآن في الدعوة إلى التأمل في مخلوقات الله، فذلك موضوع آخر، ولكننا نريد أن نذكر مفردات تخص العقل المفكر، أو العقل الذي تعطل عن القيام بدوره، واستسلم للآراء المسبقة لا يخرج عنها قيد أنملة.

من كان له قلب حي، و عقل يفكر، لا بد أن يتعظ ويعتبر، بما جرى للأقوام السابقة، التي عصت أوامر الله، وكذبت أنبياءه، ماذا وقع لها، الحيوان هو الكائن

(١)البقرة: ٩٧.

الوحيد الذي لا يعتبر بما جرى لأسلافه، فالفأر لم يتعظ بما وقع لأمه، حين وقعت في المصيدة، وجاء يوم، وإذا به يواجه نفس المصير، الذي واجهته أمه.

أرسل محمد بن عبد الله، إلى قومه في مكة، كانوا مشركين من الرأس إلى القدم، الأصنام في منازلهم وجيوبهم وفي قلوبهم، يزورونها عند السفر، وعند الرجوع منه، كانت مهمة محمد بن عبد الله صعبة جدا، كيف له أن يقتلع الشرك من جذوره، وهؤلاء قومه قد تمسكوا به حتى النخاع، أعلن لهم أن الله واحد لا شريك له، هذه هي البداية والبقية تأتي، حذرهم من مغبة عقاب الله، كما عذب قبلهم من الأمم التي كفرت بالله، أين هم ؟ وهذه آثارهم بالقرب منهم تدل على أنهم كانوا بالأمس أشداء أقوياء، ولكنهم كفروا بالله، وكذبوا برسله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(1) .

لم يلتفتوا إلى ما جاء به الرسول، كما لم يلتفت الأقوام من قبلهم إلى دعوة أنبيائهم، ولما ألح في دعوته، قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾(2) أي قلوبهم مغطاة و مقفلة وآذانهم لا تسمع، لقد قرروا بينهم وبين أنفسهم أن يضعوا حاجزا يمنع عنهم دخول هذا النور الجديد إلى عقولهم، ويعيشوا في ظلام دامس، ظلام الاقتداء بالآباء و الأجداد، ولو كانوا على شفا حفرة من نار﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(3) ظلام العادة التي درجوا عليها، ولم يحاولوا أن يغيروها، لقد أحكموا المغاليق والأقفال على سمعهم وعقولهم، وسدوا منافذ الرؤية إلى الحق، وقد عبر القرآن عن هذه الحالة المتعصبة على الرسول بالختم، فقد ختم الواحد منهم ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾(4) ويعبر

(1)ق: ٣٦ ـ ٣٧.

(2)فصلت: ٥.

(3)البقرة: ١٧٠.

(4)الجاثية: ٢٣.

القرآن كذلك عن تعنتهم وعنادهم بالطبع، بمعنى الختم، وإن كان أشد منه، فبما أنهم أصروا على الكفر والشرك فقد ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾[1] وأعلنوا صراحة أن قلوبهم ﴿فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي لا تقل ما يقال لها، وهي «غلف» أي مغلفة، لا تعي ما تسمع، فالختم والطبع والغلف، كلها تؤكد ما آلت إليه عقولهم من تحجر وجمود.

وقد ندد القرآن بمسلكهم هذا، وشنع بتعطيل العقل الذي أعطي لهم، فلهم عقول، ولكن لا يفقهون بها، ولهم أعين، ولكن لا يرون بها، ولهم آذان، ولكن لا يسمعون بها، وهم كالأنعام، بل هم أضل سبيلا، لقد وضعوا آلة الفكر، هذا المصباح المنير في بئر عميقة، أو جحر مظلم، هذه آثار من سبقهم بالقرب منهم شاهدة على مصير المكذبين، لقد دمر الله مساكنهم بسبب ظلمهم، فلماذا لا يعتبر الناس بما وقع للظلمة الفجرة ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ولماذا لا يتعظون بأخبار الماضين وتاريخهم، فتكون لهم ﴿ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، إنها كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2].

وقد بلغوا هذه الحالة لأنهم اتبعوا الهوى، ومن يتبع الهوى يضله عن سبيل الله، وللضلال مساوئ بينها القرآن، منها المرض الذي يصيب قلوب المنافقين وعقولهم، ويتمثل خاصة في التناقض الصارخ بين ما يبطنونه وما يظهرونه، والشكوك التي تنتابهم، فتقض مضاجعهم، وتنغص عيشهم، وتجعلهم في حيرة، وتمزق نفسي، لا يجدون عليه، نعم لقد ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[3].

وبالمقابل فإن قلب المؤمن وعقله في طمأنينة ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[4]

(١)النحل: ١٠٨.

(٢)الحج: ٤٦.

(٣)التوبة: ٤٥.

(٤)التغابن: ١١.

ويتذكر على الدوام أن له إلها يرعاه، ويكلؤه بعنايته، ومن كان هذا شأنه فإن الله يزرع في نفسه الطمأنينة، وراحة البال والسكينة﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1] وقوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾[2].

كما أن الإيمان يقوي العزيمة، ويجعل المؤمن شجاعا قويا صبورا لا يخاف أحدا، ولا يهاب إلا الله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[3] وإذا ذكر الله أمام العصاة لا يتحرك منهم شعور، ولا تهتز نفوسهم خوفا وخشية، لقساوة قلوبهم، وتحجر عقولهم، فإن المؤمنين ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[4].

وإذا كان القلب في القرآن يحتمل أكثر من وجه، وأكثر من معنى فإن اللب هو العقل والعقل وحده، واللب من كل شيء خالصه وخياره، وعند الراغب الأصفهاني «العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كاللباب واللب من الشيء، وقيل هو ما زكى من العقل، فكل لب عقل، وليس كل عقل لبا»[5].

وقد ذكرت الألباب في القرآن ست عشرة مرة في صيغة الجمع مسبوقة(بأولي) أي أهل،أو أصحاب،أو ذوي، ولم تتخلف عن آية من الآيات المذكورة، كأن المتحدث عنه في هذه الآيات لا يدركه إلا أهل العقول الراجحة « ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولي اللباب »[6].

فقصص الأنبياء في القرآن، لا يدرك المغزى منها إلا ذوي الألباب أي: أصحاب «العقول الزكية » وأهل البصيرة الذين يتوصلون بعقولهم إلى العبر من هذه

---

(١)الرعد: ٢٨.

(٢)الفتح: ٤.

(٣)الأنفال: ٢.

(٤)الزمر: ٢٣.

(٥)الراغب الأصفهاني: المفردات ص ٦٧٣.

(٦)نفس المرجع والصفحة.

القصص، ويستنتجون أن هذه القصص التي ذكرت أحداثها بدقة، لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون من خيال محمد بن عبد الله، وإذا سلمنا جدلا أن قصص يوسف وموسى وعيسى وغيرها من القصص التي أوردها القرآن، استقاها من كتب اليهود والنصارى كما يقول بعض المستشرقين، ومن معهم فمن أين أخذ الرسول قصص عاد وثمود، وهي غير موجودة في هذه الكتب أصلا، إن أهل الألباب تؤدي بهم عقولهم الزكية إلى أن القرآن لم ولن يكون من إنشاء محمد، أو ابتكاره أو اقتباسه والقصاص، وهو أن يوقع على الجاني مثل ما جنى النفس بالنفس، والجرح بالجرح، لا يدرك الهدف منه إلا أهل العقول الراجحة، فيعرفون أن القصاص شرعه الله لكي يرتدع الناس عن قتل بعضهم البعض، ويتقون الدماء مخافة القصاص، ولكي يعيش المجتمع في أمن وسلام ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

وأكثر هذه الآيات، ورد قبلها فعل الذكر، أو الاسم منه الذكرى، وهو عملية تفكر وتأمل، «وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول، وكل قول يقال له ذكر»[2] والذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، فمن النوع الأول قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[3] أي أن نزول القرآن شرف للرسول ولقومه، ومن النوع الثاني ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[4] «أي ذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد له، وذلك حث على الإكثار من ذكره»[5].

ومن أسماء العقل النهى جمع النهية، وسمي كذلك لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح، والقيام بالأفعال المشينة التي لا يرضاها الله، ولا يقبلها عباده،

(١)البقرة: ١٧٩.

(٢)الأصفهاني: المفردات ص٢٥٩.

(٣)الزخرف: ٤٤.

(٤)العنكبوت: ٤٥.

(٥)الراغب: مصدر مذكور ص ٢٦٠.

فكأن العقل هنا خصص لردع الإنسان عن رذائل الأعمال، ثم يلتقي مع أسماء العقل الأخرى، فيدل هو الآخر على ذوي العقول الراجحة، لأن الذي يتجنب ارتكاب الذنوب والمعاصي هو من أصحاب العقول المتزنة، وأهل العقول ينظرون في آيات الله، ويتدبرونها، فالذي سهل الأرض، وجعل العيش فيها يسيرا، بأن خلق الماء والهواء والنبات والحيوان، فكل هذه النعم وغيرها آيات لأولي العقول الراجحة الذين يسبحون بحمد الله، ولا يستكبرون عن عبادته: ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [1] وأولي النهى كذلك، يعتبرون بما جرى للأمم التي ارتكبت القبائح، فدمر الله مساكنهم، وجعلها أثرا بعد عين، ولكن الكثير من الناس، يمرون على هذه الآثار، فلا يتحرك لهم ساكنا، فيواصلون السير في طريق الضلال والغي ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [2] .

ومن يعرف الله حق المعرفة، يقبل على عبادته، ويخافه في السر والعلن، ومعرفة الله لا يتسنى الوصول إليها إلا بالعقل، والتدبر في كلام الله، والتأمل في مخلوقاته «وقد أرسل الله ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ كتابين للناس، واحد خلقه هو الطبيعة، وواحد كشفه، وهو القرآن، ويقودنا الثاني إلى بحث طبيعة الأول» فهل يقال بعد هذا أن الإسلام لا يدعو إلى استعمال العقل ؟

إن الجواب عن هذا السؤال يبرز في كثرة الألفاظ الدالة على العقل، والداعية إلى التأمل والتدبر والتفكير، وقد أتينا على الكثير منها، كما يبرز في غيرها من الأفعال، مثل يعقلون، ونظر واعتبر، وغيرها، مما لا يمكن حصره، والقرآن ليس في حاجة إلى الدفاع، لأن الدفاع لا يلجأ إليه إلا الضعفاء، كما أن القرآن لا يهاجم أحدا، لأن الهجوم على الغير يدل على ضعف الحجة عند المهاجم، فأسوار القرآن

(١)طه: ٥٤.

(٢)طه: ١٢٨.

منيعة، وكيف لا يكون منيعا، وقد نزل من لدن عليم خبير، وتكفل بحفظه دون سائر الكتب السماوية الأخرى.

صدرك في جسمك كنز لا يقدر بثمن، فاحرص على طهارته، وطهارته لا تكون إلا بذكر الله،وطمأنينته لا تتم إلا بتقوى الله ؛ سعادتك وشقاؤك بيديك، وبين صدرك، فإن شئت الأمان والرضا فدع عقلك يتحكم في قلبك ونفسك ـ وسنعود إلى النفس فيما يأتي ــ وسيد الجوارح كلها هو القلب، فهو مضغة إن صلحت صلح الجسم كله، وإن فسدت فسد الجسم كله، كما قال الرسول في أحاديثه عن القلب.

٣) البطن

البطن من كل شيء جوفه، والجوف هو البطن، وقوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[١] المقصود بالجوف « باطن الإنسان صدره وبطنه، وهو مقر الأعضاء الرئيسية عدا الدماغ »[٢] وهو ما سميناه بجذع الجسم، والآية تنفي أن يخلق الله قلبين أي عقلين في باطن إنسان واحد، فخلق الله لا يشذ عن القاعدة في هذا المجال، قد يكون القلب في الجهة اليمنى من الصدر، وهو أمر نادر الوقوع، أما أن يكون للإنسان عقلان، فهذا مستحيل، والآية « نزلت في جميل بن معمر الفهري، وكان رجلا لبيا حافظا لما يسمع، فقالت قريش: ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان، وكان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما ، أفضل من عقل محمد، فلما كان يوم بدر، وهزم المشركون، وفيهم يومئذ جميل بن معمر، تلقاه أبو سفيان، وهو معلق إحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله، فقال له: يا أبا معمر ما حال الناس ؟ قال قد انهزموا، قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك ؟ قال: ما شعرت إلا أنها في رجلي، وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في

(١)الأحزاب: ٤.

(٢)الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ٢١ ص ٢٥٦.

يده »[1].

والآية كما يقول عبد الجليل عيسى: « مقدمة عقلية جاء بها لتسفيه عقول هؤلاء السفهاء في جعلهم الولد المتبني كالولد من الصلب في كل شيء، والزوجة كالأم كذلك: أي فكما لا يكون للرجل قلبان، لا يكون للولد أبوان، ولا للرجل أمان »[2].

والبطن كذلك خلاف الظهر من كل شيء، ويقال لكل غامض بطن، ولكل ظاهر ظهر[3] ويقال لمن تدركه الحاسة ظاهر، ولما يخفى عنها باطن [4]، وقد جاء لفظ البطن باعتباره من جوارح الإنسان في القرآن دالا على أمرين:

١) البطن بوصفه محضنة لخلق الطفل ونموه، ففي رحم الأم يتكون الجنين بعد التلقيح، فيكون على صورة حلقة صغيرة: بها خيط في شكل رقم(٩) وأول ما يخلق الله عظم صغير يكون بعد انتهاء نموه في أسفل الظهر: وعلى هذا العظم يقام جسم الإنسان، وإذا مات الإنسان فكل شيء يتحلل في التراب ، وفي الماء، إلا هذا العظم، ويعيد الله يوم القيامة هذا الجسم بالاعتماد على هذا العظم، هذه الحلقة التي بها خيط، والتي تتطور شيئا فشيئا إلى أن تصبح إنسانا تحاط في الرحم بأغشية ثلاث ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾[5] وقد أثبت الطب المعاصر أن الجنين محاط بأغشية ثلاث في داخل الرحم، والله يمن على الإنسان بهذا الخلق ، ويذكره بأنه كان في البداية عبارة عن قطرة صغيرة، وإذا بها تتطور، وتمر بمراحل معينة، إلى أن تصبح إنسانا سويا، وعوض أن يحمد الله ويشكره يصبح خصما لدودا، فينكر خالقه، ويدعي أن الطبيعة هي سبب خلقه، وليس هناك إله يتحكم في

(١)الواحدي: أسباب النزول ص ٣٦٥.

(٢)المصحف الميسر ص ٥٤٩.

(٣)قال تعالى: ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن (الأنعام: ١٥١).

(٤)انظر الأصفهاني: المفردات ص ٦٦ــ ٦٧.

(٥)الزمر: ٦.

مصيره، وإذا وجد ما يسمى بالله فقد مات، وأن الإله الوحيد على هذه الأرض هو الإنسان، والإنسان وحده، هؤلاء يقول لهم القرآن ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

وذكرهم بأصلهم الأول وهو التراب، ومن كان من تراب لا يتعالى، ولا يفتخر بنفسه، ويقول وهو مغرور: أنا سيد هذا الكون، يفعل ما يريد، يقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، ويقترف الفواحش، ويرتكب الرذائل ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[2] هؤلاء سيجازيهم ربهم على الكفر بالنعمة، أما الذين عرفوا أن لهم ربا، فعبدوه، واجتنبوا ما نهى الله عنه، فسيجازون على معرفتهم لله، وسيتجاوز الله عن صغائر ذنوبهم، وقد سماها القرآن باللمم ،لأن الله واسع المغفرة عن عباده الأتقياء

٢) مآل بعض البطون يوم القيامة، وهي بطون أحبار اليهود الذين كانوا ومازالوا يكتمون ما جاء في التوراة عن مجيء الرسول، ويأخذون عن كتمانهم حقيقة الإسلام ، وبعثة رسوله ، رشاوى مالية عن هذا الكتمان، ليشتروا به بعض متاع الدنيا، فهؤلاء ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾[3].

أي يعذبون في النار، وتعذب خاصة تلك البطون التي أكلت السحت ، وكذلك من أكل أموال اليتامى ظلما، فمآله العذاب، والصلي بالنار، والأموال التي أكلوها في الدنيا، تتحول يوم القيامة إلى نار تشتعل في بطونهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾[4].

(١) النحل: ٧٨.

(٢) النجم: ٣٢.

(٣) البقرة: ١٧٤.

(٤) النساء: ١٠.

والنوع الثالث من الذين سيعذبون في بطونهم، هم الكفار من مجوس ويهود ونصارى، ومن ألوان العذاب التي سيلاقونها صهر، أي إذابة ما في بطونهم من أمعاء وأحشاء، قال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾[(1)].

وطعام المشركين، ومن لف لفهم، يتمثل في شجرة الزقوم، وهي شجرة مرة كريهة الرائحة سماها القرآن﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ أي كثير الآثام والذنوب، وهي « محنة» لهؤلاء الناس الذين كذبوا الرسول، ورفضوا الإيمان بالقرآن﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾[(2)] كما أنكروا أن ينبت الله شجرة في وسط النار، لهذه الأسباب يرغمون على أكل هذه الشجرة المنتنة، القبيحة الشكل، وشبه القرآن طلعها: أي أول ما ينبت منها « برؤوس الشياطين» وكان «من عادة العرب أنهم يشبهون كل قبيح الصورة بالشيطان، لأن له صورة بشعة في تخيلهم، ويشبهون حسن الصورة بالملك، لحسن صورته في مخيلاتهم»[(3)] قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾[(4)].

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ يعني ما أبعد الفرق بين سكنى أهل الجنة، وسكنى أهل النار، فإن كانت ضيافة أهل النار شجرة الزقوم، فإن ما يقدم لأهل الجنة هو الفاكهة المختلفة الأنواع، والشراب الذي لا ينتج عنه غثيان، أو مما يعرف عن خمر الدنيا من سكر وعربدة، وعندهم نساء جميلات، لا ينظرن إلا لأزواجهن لجمالهم عندهن، وأكثر من ذلك رضوان الله عليهم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾

(1) الحج: ٢٠.
(2) الدخان: ٤٤.
(3) عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص ٥٩١.
(4) الصافات: ٦٢ ـ ٦٦.

بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[1] . فأي من الضيافتين تريد ؟ وأي من الطعامين ترغب فيه ؟

لا تضع في بطنك إلا الحلال الطيب ، وابتعد عما حرمه الله ، يسلم بطنك من النار، لقد خلق الله لك أطعمة كثيرة، وبين لك منها ما يؤكل، وما لا يؤكل، ويشرب وما لا يشرب، فاختر منها ما أحله الله ، وتجنب ما حرمه الله تسلم، ويسلم جسمك، وردد دعاء إبراهيم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾[2] ولو لم يكن الطعام لهلكنا، ولكن الله رؤوف بعباده مؤمنهم وكافرهم ، وقد يسأل أحدهم : ألم يخلق الله أسباب الشر ووسائله، فشرب الخمر حرام، وإذا كانت كذلك فلماذا خلق الله العنب ؟ يجيبنا سعيد حوى قائلا : « إن العنب في حد ذاته شيء طيب جميل، والحكمة في خلقه واضحة، والإنسان هو الذي نقل العنب من وضعه الصالح الطيب إلى الوضع الخبيث الفاسد »[3] .

٤) الظهر

الظهر خلاف البطن، وجمعه ظهور، وقد استعملت هذه الجارحة في مستويين :

١) المستوى الدنيوي، يمثل الظهر عنصرًا هامًا في بناء جسم الإنسان، وفي أسفله يوجد عجب الذنب، هذا العظيم الذي لا يبلى كما قلنا، ويستعمل الظهر في القرآن مجازا، كما سنرى،عندما خلق الله آدم مسح ظهره، فاستخرج منه ذريته، ومنهم أنت أيها القارئ، وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم الذر، وأشهد كل واحد منهم قائلا: ألست بربكم ، فقالوا: نعم أنت ربنا، قال لهم : ذلك لكي لا يقولوا لم يكن عندنا علم ، بكون الله ربنا وحده ، لا شريك له[4] قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ

(١)الصافات : ٤٠ ـ ٤٩.

(٢)الشعراء : ٧٩.

(٣)سعيد حوى : الله جل جلاله ص ٩٤.

(٤)انظر الأشقر : زبدة التفسير ص ٢٢١.

ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [1] .

أما الرسول ، فقد أثقل ظهره ضلال قومه، وإقبالهم على عبادة الأوثان، وترك عبادة الواحد الأحد، فكان ﷺ مهتما بهداية قومه، ودفعهم إلى طريق الصواب، هذا الاهتمام عبر عنه القرآن بالأمر الثقيل، وحمل الهموم أقوى من حمل الأثقال، وقد خفف الله عنه هذا الحمل، وشرح الله صدره، ففرح بهذا التخفيف ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [2] واليهود لما بعث الرسول أنكروا نبوته، وأنكروا بالتالي التوراة التي جاءت فيها البشارة بالرسول محمد، وقد أوجب الله عليهم في التوراة الإيمان بالرسول وتصديقه، ولكنهم نقضوا الميثاق ورفضوا نبوة محمد ﷺ ، كأنه لا علم لهم بهذا النبي، وما زال اليهود والنصارى على رفضهم أن يكون في التوراة، أو في الإنجيل ذكر لأمر الرسول، أو أن يأتي رجل من العرب يكون نبيا، وهو عناد لا مبرر له، سوى البغض والحسد لا غير﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [3] ومعنى ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي لم يعملوا بها في التوراة من الإيمان بالرسول وبالقرآن، وطرحوا ما جاء في كتابهم الذي أكرمهم الله بنزوله، في خصوص نبوة الرسول، ولم يعملوا به، وليس ذلك بغريب على اليهود، فنقضهم للعهود والمواثيق، وحبهم للدنيا، وعبادتهم للعجل أي الذهب والمال أمر لا يجهله أحد ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [4] .

٢) أما على المستوى الأخروي، فإن اليهود وغيرهم ممن كذب بنبوة الرسول،

(١)الأعراف : ١٧٢.

(٢)الشرح : ١ ـ ٣.

(٣)البقرة : ١٠١.

(٤)آل عمران : ١٨٧.

سيجازون على تكذيبهم يوم القيامة، يوم يبعث الله الواحد منهم فردا، لا أهل له ولا مال، ولا من ينصره، يومها يأتي كيوم ولدته أمه، عاري الجسم، وحتى المتاع الذي أعطي له في الدنيا لا ينتفع به، لقد تركه وراء ظهره بغير اختياره، فأين الأصنام ، وأنواع الشرك التي كان يتعلق بها في الدنيا ؟ هل تنفعه في هذا اليوم ؟ وأين هم اليوم؟ لقد تقطع حبل الوصل بينه وبين ما كان يعبد من دون الله ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [(١)] .

ويعرف يوم القيامة الفائز من المجرم، فأما الفائز فكتابه بيده اليمنى، وهو يسرع الخطى من شدة الفرح إلى الجنة، وأما المجرم فكتابه وراء ظهره ، ويده اليمنى مغلولة ويده اليسرى وراء ظهره ، ليأخذ بها كتبه، وعندما يراه يصعق فيصرخ : يا ثبورا ، أي هلاكه ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ [(٢)] وهو يتثاقل في مشيته، وقد ندم على تفريطه في العمل لهذا اليوم، والاستعداد له، وها هو يحمل أوزاره على ظهره، فهل يعني الحمل حقيقة بأن تتحول الذنوب إلى كتلة ثقيلة، أي تنعكس الآية، فقد كانت الكبائر والذنوب في الدنيا أمرا مجردا لا يشعر الإنسان بحملها، فتصبح يوم القيامة أمر حقيقيا، ثقيلة على حاملها؟ أم أن الذنوب تلزم أصحابها، وتلتبس بهم فيصيرون مثقلين بها كأنها على الظهور ؟ العلم عند الله، ولا يعلم بالغيب إلا ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [(٣)] .

وفي نار جهنم يلقى العصاة المجرمون جزاءهم، ومنهم خاصة أولئك الذين يكنزون المال، ولا ينفقونه في سبيل الله، فإن هذه الأموال تكوى ﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ

---

(١)الأنعام : ٩٤.

(٢)الانشقاق : ١٠ ـ ١١.

(٣)الأنعام : ٣١.

﴿ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾[1] ولو علم المكذبون، عندما لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم وظهورهم، وليس لهم من ناصر من هذا العذاب، ما تساءلوا عن يوم القيامة سؤال المكذب الجاحد، ولأعدوا له العدة، فآمنوا بما جاء به محمد، من توحيد، ونبذ للشرك ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[2].

٥) الجنوب

الجنوب جمع جنب، والجنب من كل شيء ناحيته وشقه، ويطلق على شق الإنسان وغيره، وقد رأينا كيف تكوى جنوب مدخري الذهب والفضة في آية التوبة أعلاه، أما الآية الثانية فتخص أولي الألباب ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[3] أي يذكرون ربهم في كل الأحوال الثلاثة: أي القيام والقعود والاضطجاع، فهل يعني أنهم يصلون، ولا يفوتون صلاتهم في حال من الأحوال؟ أم أن الذكر يعني ذكر الله وتسبيحه، وقراءة القرآن في هذه الأحوال المذكورة؟ فقد كان الرسول ﷺ يذكر الله على كل أحيانه ﷺ هؤلاء الذين يذكرون الله في الليل ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[4] أي يتركون مكان نومهم، ويقبلون على ذكر الله والصلاة، خوفا من الله، وطمعا في مغفرته، مرددين: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[5]..

***

(١) التوبة: ٣٥.
(٢) الأنبياء: ٣٩.
(٣) آل عمران: ١٩١.
(٤) السجدة: ١٦.
(٥) آل عمران: ١٩٣ ـ ١٩٤.

٦) الرحم

الرحم وجمعها أرحام، ولم ترد في القرآن إلا جمعا، والرحم الموضع الذي يتكون فيه الجنين، ووعاؤه البطن، وهو من مادة رحم الدالة على الشفقة والعطف والرحمة، ومن هذا اللفظ استعير الرحم للقرابة، لكونها خارجة من رحم واحد، وتستعمل الرحمة في الرقة والإحسان، قال ﷺ ذاكرا عن ربه : «إنه لما خلق الرحم، قال لها : أنا الرحمن، وأنت الرحم، شققت اسمك من اسمي، فمن وصلك وصلته، ومن قطعك بتته»، والرحمة منطوية على معنيين الرقة والإحسان، فركز الله في طبائع الناس الرقة وتفرد بالإحسان[1]

ويدل الرحم في القرآن على :

١)الرحم مستودع خلق الجنين، ففي هذا الوعاء يصور الله الجنين ، فيكون أنثى أو ذكر وأسود أو أبيض، وطويل أو قصير ، وفيه يتم تشكيل مختلف الأعضاء من عين وأذن وأطراف، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[2]

والله يعلم ما في الأرحام، تردد فعل المضارع (يعلم) في آيتين ، سنذكر هما بعد قليل، فما معنى علم الله بما في الأرحام ؟ هل يعلم أنه أنثى أو ذكر، كما يذكر بعض الناس، ثم يقولون إن الطب الحديث توصل إلى معرفة نوع الجنين في بطن أمه، وأكثر من ذلك يمكن أن يكون الطفل القادم ذكرا أو أنثى، حسب رغبة الوالدين، هذا كله ممكن، ولكن القرآن يشير إلى معنى آخر، هو مآل هذا الجنين في المستقبل، هل هو سعيد أو شقي، وجميل أو قبيح، ومتى يحل أجله، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الإنسان في الدنيا والآخرة، فالله يعلم كل ذلك، وأكثر من ذلك، يعلم أيضا ما ينقص من أجزاء الجنين في الأرحام، كنقص يد أو إصبع وغيرهما، كما يعلم ما يأخذه الجنين من الأرحام، ويعلم كذلك وقت خروج هذا الجنين إلى عالم الناس، فلا يكون سقطا، فعلم الله هو علم مطلق، وعلم الأطباء هو علم نسبي﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ

(١)الأصبهاني : المفردات ص ٢٧٩.

(٢)آل عمران : ٦.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [2] وقوله تعالى أيضا :

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [3].

وبما أن المرأة تعلم أكثر من غيرها بحملها أوعدم حملها، فقد حذر الله على المرأة المطلقة، إن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر، أن تكتم مسألة حملها من عدمه، بعد انتهاء عدتها، قال تعالى : ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [4].

٢) المحافظة على ذوي الأرحام والإحسان إليهم ، فقد دعا القرآن إلى صلة الرحم : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [5] والأرحام جمع رحم، وهو اسم لجميع الأقارب، لا فرق في ذلك بين المحرم وغيره، وقد جمع الله في هذه الآية بين تقواه، وعدم قطع صلة الرحم، وهي مما أمر الله به أن يوصل

وللرسول أحاديث تؤكد على صلة الرحم منها قوله ﷺ : «من أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره [6] فليصل رحمه» [7].

٧) الفرج

الفرج وجمعه فروج ، والفرج ما بين الرجلين للمرأة والرجل، ونعني به السوءة أو العورة ، ويطلق على القبل والدبر، وقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات بحفظ الفروج، والحفظ (حفظ الفروج) الذي تكرر ذكره بجانب الفروج، يعني

(١) الرعد : ٨.

(٢) لقمان : ٣٤.

(٣) الحج : ٥.

(٤) البقرة : ٢٢٨.

(٥) النساء : ١.

(٦) ينسأ له في أثره : يؤخر له في أجله وعمره.

(٧) رواه البخاري ومسلم.

التمسك بالعفاف، وتجنب ما يؤدي إلى اقتراف الرذيلة، كالنظر والاسترسال فيه، ومشاهدة الأفلام الخليعة، والاستماع إلى الغناء الماجن، وغير ذلك من المنافذ التي تؤدي إلى ارتكاب الفواحش، وتغري بالإقبال عليها، وقد أمر الله بغض البصر، لأن النظر كما يقول الرسول ﷺ سهم من سهام إبليس.

ومن غض بصره فقد حافظ على العفاف، وقد أثنى الله على المؤمنين والمؤمنات، لأنهم يحفظون فروجهم، ويتجنبون المغريات المؤدية إلى خدش العفاف، فمن صفات المؤمنين أنهم ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ ﴾[1] .

غض البصر، وحفظ الفروج هما من صفات المؤمنين الذين استجابوا لأمر الله، فتحكموا في شهواتهم، واستطاعوا أن ينتصروا على الشيطان، الذي من وظائفه في الحياة الدنيا الإغواء والإغراء، ودفع الناس إلى ارتكاب ما حرم الله، فالله لا يسمح باللقاء بين الرجل والمرأة إلا عن طريق الزواج الشرعي، وعن طريق الزواج فقط برفع الحرج في حفظ الفروج، ومن أطاع الله ، وكان عفيفا، أعد له ﴿مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴾.

وقد شنع الله بالزنى، واعتبره جرما عظيما، لأن العيش مع المرأة بهذه الطريقة، يجعل الإنسان في مرتبة الحيوان، والله قد كرم الإنسان، ورفع منزلته عن الحيوان، والزنى فعلة ظاهرة القبح ، وأكثر من ذلك، يؤدي إلى الفوضى في الأنساب، كما يؤدي إلى الأمراض الفتاكة التي حار الأطباء في علاجها ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[2] وقد يقول قائل إذا كان الزنى شر فلماذا خلق الله آلاته ؟

« لقد خلق الله للرجل أعضاء تناسلية وكذلك للأنثى، وخلق عند الرجل شهوة، وعند المرأة شهوة، والحكمة واضحة فيما خلق الله ، ولكن الإنسان هو الذي نقل استعمال هذه الآلات من الوضع الحكيم الذي خلقت له من أجل بقاء الجنس، إلى حالة الفوضى الجنسية، فليس الشر إذن في خلق هذه الأعضاء، وإنما الشر فيما

(١) المؤمنون : ٥ ــ ٦.

(٢) الإسراء : ٢.

فعله الإنسان متجاوزا الحدود التي خلقت الأشياء من أجلها »[1].

وبما أن الزنى جريمة، فقد وضع الله لها حدا، وهو مائة جلدة ، لكل من الزاني والزانية الممكنة منه لا المكرهة ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾[2].

٨) المني

المني، نعني به، ذلك السائل المبيض، الذي يخرج من قضيب الرجل، إثر جماع أو نحوه، ومنشؤه إفرازات الخصيتين، ويختلط به إفراز الحوصلتين المنويتين، وقد ذكره القرآن بمناسبة الحديث عن الغاية من خلق الإنسان، وهي تكليفه بأعمال معينة، وأرسل الأنبياء لكي يأمروا الناس بالقيام بها، وتنبيههم إلى أنهم سيحاسبون على القيام بها أو تركها، وأن بعثهم أمر لا شك فيه إذ : لم يخلقهم الله عبثا، قال تعالى :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمْنَىٰ ﴾[3].

وذكر الناس بالطريقة التي يتم بها خلقهم، وهي النطفة أو المني، إذا تدفق في الرحم، والتقت الحيوان المنوي ببويضة المرأة ، ومن هذا الامتزاج بين المائين يكون الجنين، ويكون تصوير الله لهذا المخلوق كيف يشاء ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾[4].

فهل هذا المني الذي يتسبب في خلق الناس، أنتم قمتم بخلقه وتصويره إنسانا، ووضعتم لكل شيء قدرا ؟ أم أن الله هو الذي خلقه، و صوره في الأرحام بشرا سويا ؟ ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[5].

(١) سعيد حوى : الله جل جلاله ص ٩٤.

(٢) النور : ٢.

(٣) القيامة : ٣٦ ـ ٣٧.

(٤) النجم : ٤٦.

(٥) الواقعة : ٥٨ ـ ٥٩.

ويختلط هذا المني بماء المرأة في الرحم، ومن امتزاجهما يتكون الجنين، وقد سماه القرآن بالماء الدافق، في سورة الطارق ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ [1] وفي الآية دعوة إلى التفكير في خلق الإنسان، مم خلق؟ وكيف خلق ؟ ليعود عن غيه، ويعتبر أن الله خلقه بالطريقة التي يعرفون في الدنيا، فكيف لا يعيدهم أحياء يوم القيامة، وطريقة إعادتهم أهون عند الله من خلقهم في بطون أمهاتهم ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ أي أن إحياء الإنسان بجسمه الذي كان عليه في الدنيا أمر سيتحقق ما في ذلك شك، لأن قدرة الله فوق التصور، وفوق كل الظنون.

فلنحافظ على هذه النطفة، ولا نفرط فيها إلا عن طريق الزواج الشرعي، الذي يحفظ للمرأة كرامتها ومنزلتها في المجتمع ، ويصون الأجيال النابتة من الإهمال والانحراف، فالزواج يكفل للأبناء العيش ضمن أسرة ترعى أبناءها، وتحافظ على كيانهم الجسمي والعقلي والنفسي، فأيها نفضل : أبناء أسوياء ،أو أبناء منحرفون ؟

إن الاتصال الجنسي يترتب عنه ما يسمى في الفقه بالجنابة ، وهي حال من ينزل منه مني، فإذا تم هذا الاتصال يجب الغسل منه للمرأة والرجل، ولا تتم الصلاة إلا به، قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [2] كما أن الغسل واجب على المرأة بعد الحيض ، وبعد النفاس، وإثر الاحتلام للمرأة والرجل، والغسل يعني تعميم ظاهر الجسد بالماء ،وكيفيته: نية رفع الحدث الأكبر، والموالاة ، والدلك، وتخليل الشعر، وتعميم الماء، هذا بالنسبة لفرائضه ، أما سننه فغسل اليدين إلى الكوعين، والمضمضة، والاستنشاق، والاستنثار، وإزالة ما بالأذن من أوساخ [3] .

وقبل القيام بالغسل، لا يقرب الإنسان من الصلاة، وهو على تلك الحال، إلا إذا كان مريضا، أو في حال سفر، أو لم يجد ماء بالمرة ، وهنا يمكن الانتقال إلى التيمم، ولايمكن له أن يدخل مواضع الصلاة، كالمسجد الذي يمكن أن يمر منه

(١)الطارق : ٥ ـ ٦.

(٢)المائدة : ٦.

(٣)انظر محمد العربي القروي : الخلاصة الفقهية ص ٢٣.

فقط ، دون أن يجلس فيه ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾[1] .

وهنا يحسن بنا أن نذكر بآداب القرآن عند الحديث عما نسميه اليوم بالعلاقات الجنسية، وعن الأشياء التي يستحي الإنسان التصريح بها، فمباشرة الزوجة، عبر عنه القرآن بقوله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ ﴾[2] .

والرفث كل ما لا تجيز الآداب العامة التصريح به، ويكني القرآن عما يقع بين الرجل وزوجته بالملامسة ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾[3] أو المس ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ (الآية)[4] أو يكني بالتغشي أو بالغطاء عن معاشرة الزوج لزوجته ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا ﴾[5] .

٩) الدبر

الدبر جمع أدبار، وقد وردت في القرآن في صيغة الجمع ، والدبر من كل شيء مؤخره وعقبه، والمقصود به الإست ، أما صاحب المفردات، فالدبر عنده « خلاف القبل، وكنى بهما عن العضوين المخصوصين »[6] وقد ذكر في سورتين هما الأنفال ومحمد ، فالكفار في الآيتين حين الموت يضربون وجوههم وأدبارهم ، قال تعالى : ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾[7] والآية الثانية:

---

(١) النساء : ٤٣.

(٢) البقرة: ١٨٧.

(٣) المائدة : ٦.

(٤) البقرة : ٢٣٦.

(٥) الأعراف : ١٨٩.

(٦) الراغب : المفردات ص ٢٣٧.

(٧) الأنفال : ٥٠.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾[1] .

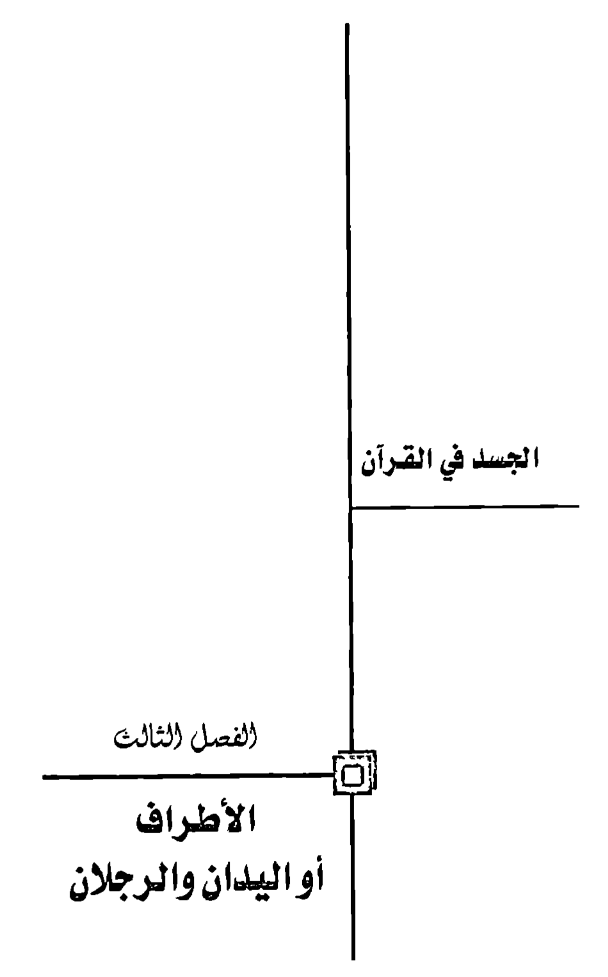
ويفسر الراغب الأصفهاني ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ بقدامهم وخلفهم، أما عبد الجليل عيسى فيقول « هذا من الغيب الذي لولا إخبار الله به لما علمناه »[2]

ويذهب الطاهر بن عاشور إلى أن « ذكر الوجوه والأدبار للتعميم : أي يضربون جميع أجسادهم، فالأدبار جمع دبر، وهو ما دبر من الإنسان، ومنه قوله تعالى ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[3] وكذلك الوجوه كناية عما أقبل من الإنسان، وهذا كقول العرب : ضربته الظهر والبطن ، كناية عما أقبل وما أدبر أي : ضربته في جميع جسده »[4] .

وإذا كان المقصود من الدبر المعنى الذي ذكرناه أولا ، فيصبح الدبر من أعضاء الجسم التي بواسطتها يتخلص الإنسان من الفضلات، وقد كنى عنها القرآن بقوله تعالى، وهو يتحدث عن عيسى وأمه، عليهما السلام، بوصفهما من البشر: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[5] « كناية عما يستلزمه أكل الطعام من إخراج الفضلات »[6] .

وحتى قوله تعالى ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ ﴾[7] كناية عن التبرز، فالغائط هو المنخفض الواسع من الأرض ، يقال ذهب إلى الغائط، وجاء منه، كناية عن التخلص من الفضلات، أو ما يسميه الفقهاء بالأذى ، سواء من القبل أو من الدبر، وفي الفقه استنجى من الحدث أي : تطهر بالماء ونحوه، وما يخرج منهما حتى الريح يعتبر من نواقض الوضوء.

(١)محمد :٢٧.
(٢)عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ص ٢٣٤.
(٣)القمر : ٤٥.
(٤)الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ج ١٠ص ٤١.
(٥)المائدة : ٧٥.
(٦)عبد الجليل عيسى : مرجع مذكور.
(٧)النساء : ٤٣.



الفصل الثالث

الأطراف
أو اليدان والرجلان

الطرف من كل شيء منتهاه، وتطلق عادة على اليدين والرجلين ، وبما أن اليد قد خصص لها القرآن حيزا كبيرا ـ كما سنرى ـ فستتحدث عن اليد أولا، ثم نمر إلى أجزائها بعد ذلك، وفي مرحلة موالية، نأتي على الرجل وأجزائها، كما جاءت في الذكر الحكيم، وهو ما التزمنا به في هذا البحث، إذ لا نخرج عما ذكره القرآن.

***

١) اليد

اليد من المنكب إلى أطراف الأصابع،هذا هو حدها في اللغة العربية، واليد هذه، هي التي تصنع الحضارة من كتب علمية وأدبية ، وبناء هندسي ومعماري، ذي طابع فني رفيع، وهي التي تصنع الآلات المفيدة للإنسان، كوسائل النقل البري والبحري والجوي، وتنتج الأسلحة للدفاع عن النفس والوطن، وهي التي ترسم لوحات غاية في الروعة والسمو، واليد هي التي نتغذى بها ونكتب، وبها نغتسل ونتوضأ، وقد خلقت في شكل مرن، قابل للقيام بوظائف مختلفة، وغرست فيها الأصابع التي تعتبر تاج اليد، ومحور نشاطها، هذا بالإضافة إلى ما في اليدين من قوة فاعلة تستطيعان رفع عشرات الكيلوغرامات، ولتصور أنه لو لم يكن للإنسان هاتان اليدان، فكيف ستكون حياة الإنسان ؟ وهل توجد حضارة كما نراها اليوم.

لننظر في القرآن، ونتأمل في المعاني الخاصة باليد، هذا العضو المحوري في جسم الإنسان فماذا نجد ؟

ورد ذكر اليد في القرآن في صيغة المفرد والمثنى والجمع ، ومضافة إلى الإنسان، أو إلى الله في مائة وعشرين آية ، موزعة على سبع وأربعين سورة ، أي بنسبة واحد وأربعين في المائة من سور القرآن ، وهذه النسبة تدل على أهمية اليد في القرآن .

وقبل أن نمر إلى معاني اليد في القرآن، ننظر في استعمالها اللغوي، ففي لسان العرب اليد هي الجارحة، وهي العضو العامل من أعضاء الجسد كالرجل، ومن معاني جرح نجد اكتسب، وقد ورد جرح بمعنى اكتسب، كما في الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى

﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ (1) كما استعمل القرآن المصدر من جرح في صيغة الجمع قال تعالى: ﴿وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (2) وجاء في القرآن هذا الفعل ـ أي جرح ـ على وزن افتعل، وهو يدل على عودة الفعل على الفاعل، قال تعالى : ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (3) وجرح واجترح تستعمل عادة في الجرائم ، والأداة التي تقوم بالجريمة هي اليد، فهي وسيلة للبطش، كما أنها يتوصل بها إلى الخير، والنفع العام ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ (4) .

ونستنتج أن اليد هي التي تجرح السيئات أي تكتسبها، وهي التي تبطش، وهي التي تسعى إلى الخير، فهي عضو منفذ لأوامر العقل ، فالعقل يتصور، واليد تنفذ، والعبرة بالتنفيذ، أما التصور فيبقى رهين التطبيق والممارسة.

هذه اليد الفاعلة نجدها في القرآن تدل على معان عدة، حسب السياق، ويمكن رصد هذه المعاني من خلال المستويات الثلاثة التالية :

ففي المستوى الأول أسندت إلى الإنسان، والعجيب أن أول آية في هذا السياق أشارت إلى دور اليد في القتل، قتل قابيل لأخيه هابيل في سورة المائدة ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾(5) .

والآية مقامة على مقابلة بين موقف قابيل الذي يريد التعدي والظلم، وموقف هابيل المسالم، والذي يريد الخير لغيره، من ذلك أنه لا يظلم أحدا، ولا يسفك دما، لإيمانه بأن الله يعاقب المعتدي الظالم، وهو ما تشير إليه بقية الآية ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ

---

(1)الأنعام : ٦٠.

(2)المائدة : ٤٥.

(3)الجاثية : ٢١.

(4)يس : ٣٥.

(5)المائدة : ٢٨.

رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

واستعمل القرآن اليد في آية أخرى، باعتبارها وسيلة للإنفاق الذي يتم بواسطة اليد، إما تقتيرا أو إسرافا، والقرآن كعادته يدعو إلى التوسط بين رذيلتي الإسراف والتقتير، وقد خص القرآن اليد لدورها الكبير في القيام بالشؤون المالية، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[1] وقد صورت الآية حال الشحيح ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ وحال المبذر والمسرف ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ والآية تدعو إلى الاعتدال والإحسان في النفقة، وتوجه الخطاب إلى الإنسان، وإلى الجزء الفاعل في بدنه في هذه المسألة وهي اليد.

وهي كذلك تقبض عند القيام بمساعدة الآخرين كالصدقة، فقد كان المنافقون كما في هذه الآية ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾[2] ومعنى يقبضون أيديهم أي « يشحون فيما ينبغي إخراجه من المال في الصدقة والصلة والجهاد »[3] .

ويقابل الشح والبخل الكرم والجود، فقد كان الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب « أصحاب النعم على الناس، والإحسان إليهم ، لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيرا »[4] قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [5]
وفسر الطاهر بن عاشور الأيدي« بمعنى القوة في الدين »[6] .

وتدل اليد في القرآن على القوة والسطوة، والقيام بالتدمير والتخريب فهي تبني، وتسوي من جهة، وتهدم من جهة أخرى ، كشأن أعداء الرسول الذين عملوا

(١)الإسراء : ٢٩.

(٢)التوبة : ٦٧.

(٣)الأشقر : زبدة التفسير ص ٢٥٢.

(٤)المرجع نفسه ص ٦٠٢.

(٥)ص : ٤٥.

(٦)التحرير والتنوير ج ٢٣ص ٢٧٦.

على إيذائه، قال تعالى : ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] .

ومن معاني اليد القوة ، وما يؤيد اليد من سلاح وعدة ، قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[2] .

وإعطاء الجزية لا يكون إلا بوجود الشوكة، وقدرة اليد على استعمالها، واندفاع للغلب والفوز، والمغلوب عادة يكون خاضعا للغالب، ومعنى الآية « أن الذمي يعطي الجزية حال كونه صاغرا ذليلا، فيأتي بها بنفسه، ويسلمها وهو قائم ، والمتسلم قاعد »[3] .

ويوجد في القرآن ما يشير إلى قوة اليد وبطشها، قال تعالى:

- ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾[4] .
- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾[5] .
- ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾[6] .

وترد اليد بمعنى المسؤول والقائم بالأمر، فالأب مسؤول عن ابنته البكر، ويتوقف عقد الزواج على حضوره، فإن تزوجت ووقع الطلاق قبل الدخول، وسمي لها المهر، فلها أن تتمتع بنصف هذا المهر جبرا لخاطرها، إلا إذا أرادت هي إسقاط هذا النصف تكرما منها و تفضلا، لأنها تملك التصرف في نفسها مع وليها، وهي في حوزته، وتحت نظره ، قال تعالى : ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[7]

(١)الحشر : ٢.
(٢)التوبة : ٢٩.
(٣)الأشقر : مرجع مذكور ص ٢٤٥.
(٤)الأعراف : ١٩٥.
(٥)الذاريات : ٤٧.
(٦)ص : ١٧.
(٧)البقرة : ٢٣٧.

وتبدو اليد في القرآن مسؤولة عن أعمال الإنسان كلها، فهي العنصر الفاعل في القيام بأعمال الخير وضدها، فهي التي تقوم بالمعاصي، وترتكب الذنوب، وإن كانت ليست هي المسؤولة وحدها عن كل ذلك، قال تعالى:

ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1].

ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾[2].

ـ ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾[3].

ويتحول الخطاب إلى الجمع بعد المفرد: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[4].

ثم إلى الجمع الغائب، ولعل في هذا التوجه زيادة في الاحتقار والتوبيخ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[5].

والقرآن يشير إلى أن دخول الجنة مستحيل على هؤلاء الذين لم يؤمنوا، وعصوا عن أمر ربهم، وكنى عن العصيان والجحود، بما قدمت أيديهم من أعمال منافية لما أمر به الله.

والعضو الذي يستعمل في التحسر والندم يوم القيامة بالنسبة للعصاة هو اليد، ويقابله العض على الأنامل في الدنيا من الغيظ، كما رأينا أعلاه، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[6].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾[7].

(١)الحج : ١٠.
(٢)الكهف : ٥٧.
(٣)النبأ : ٤٠.
(٤)آل عمران : ١٨٢.
(٥)البقرة :٩٥.
(٦)الفرقان : ٢٧.
(٧)الأعراف : ١٤٩.

ولئن كانت بقية الأعضاء تشهد على أفعال الإنسان في الدنيا، مثل اللسان والأرجل، فإن اليد هي العضو الوحيد الذي يتكلم عوض الفم، فاليد التي كانت عونا على القيام بالمعاصي، أصبحت تتكلم وتشهد على ارتكاب صاحبها للذنوب، مما يدل على أنها منفذة لأعمال الإنسان أكثر من غيرها، وأن العقل والنفس هما اللذان يحركانها نحو الخير أو الشر، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[1].

ونرى المؤمنين، عكس ذلك، يوسع لهم الطريق فوق الصراط، وكنى عن مرورهم بسلام، بإشاعة النور بين أيديهم، ويقصد أمامهم ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾[2].

ونسب القرآن لليد الاختلاق والوضع والتحريف، فقد عمل اليهود على تحريف التوراة زورا وبهتانا: إذ حذفوا خاصة البشارة الواردة في التوراة، والتي تقول بمجيء الرسول محمد ﷺ، وذكر صفاته، والمكان الذي سيظهر فيه، قال تعالى: ـ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[3].

ـ ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[4].

« فنسبته إلى أيديهم تنبيه على أنهم اختلقوه، وذلك كنسبة القول إلى أفواههم في قوله عز وجل »[5]:

ـ ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾[6].

(١)يس: ٦٥.

(٢)الحديد: ١٢.

(٣)البقرة: ٧٩.

(٤)البقرة: ٧٩.

(٥)الراغب الأصفهاني: المفردات ص ٨٤٦.

(٦)التوبة: ٣٠.

ويستعمل القرآن اليد، ويعني بها الإنسان جسما وروحا، مثل هذه الآية ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾(1) أي لا تسلموا، واعملوا على تهيئة أسباب النصر، والتهيئة تكون عن طريق اليد المدربة على استعمال السلاح، وشبيه بهذا منع الله أعداء الرسول عن قتله، فاستعمل القرآن اليد، وكفها عن إيذاء النبي، لأنها هي التي تنفذ الاغتيال والقتل ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾(2).

أما المستوى الثاني من استعمال اليد في القرآن، فيتمثل في نسبة اليد إلى الله سبحانه وتعالى، أو إضافة اليدين إلى رحمته أو عذابه، فما هو المقصود بيد الله ؟

. تنسب اليد، أو تضاف إلى الله على سبيل المجاز والتخييل، وتعني من خلال المعاني الحافة القوة والرعاية : مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(3).

فبيعة المسلمين للنبي تحت الشجرة هي في الظاهر من قبل المسلمين « هي بيعة الله في الواقع (،،،) وجعلت اليد المتخيلة فوق أيديهم، إما لأن إضافتها تقتضي تشريفها بالرفعة على أيدي الناس، وإما لأن المبايعة كانت بأن يمد المبايع كفه أمام المبايع (بالفتح) ويضع هذا المبايع يده على يد المبايع، فالوصف بالفوقية من تمام التخييلية »(4)

ويدل المعنى كما يذكر الراغب الأصفهاني : « أن يده عليه السلام مع يد الله، وإذا كانت يده فوق أيديهم فيد الله فوق أيديهم ، ويدعم تفسيره لهذه الآية بالحديث : لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها(5).

(1)البقرة : ١٩٥.

(2)المائدة : ١١.

(3)الفتح : ١٠.

(4)الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ١٥٨.

(5)الراغب الأصفهاني : المفردات ص ٨٤٦ والحديث رواه البخاري.

ويشبه معنى القوة والرعاية الجود والكرم، وإسباغ النعم التي لا تحصى على الناس، بدون استثناء، فقد قال اليهود عن الله ـ تنزه عن ذلك ـ أنه بخيل، فأجابهم بأنه كريم، وغاية ما يكون في الجود، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1] .

وتدل اليد على أن المتسبب في الخير والفضل هو الله، وهو المتصرف في كل شيء، وليس للغير دخل في كل ما يحدث، فملكية الأشياء كلها لله، ويفهم ذلك من معنى حرف الجر، مثل قوله تعالى:

ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾[2] .

ـ ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾[3]

ـ ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[4] .

ـ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[5] .

ـ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[6] .

والمعنى الأخير لليد المضافة إلى الله، هو وقوع الأمر في حضرة الله، وبأمر منه، يظهر ذلك من خلال الآيات التالية:

ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[7] .

ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[8] .

(١) المائدة: ٦٤.
(٢) آل عمران: ٧٣.
(٣) آل عمران: ٢٦.
(٤) المؤمنون: ٨٨.
(٥) يس: ٨٣.
(٦) الملك: ١.
(٧) الأعراف: ٥٧.
(٨) الفرقان: ٥٨.

- ﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾(1) .
- ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾(2) .
- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾(3) .

وتكون اليد في صيغة المثنى، وتعني الحضرة والحضور: أي وجود الإنسان في حضرة الرسول، أو في حضرة الله حقيقة، أو مجازا، كما يتضح من الآيات السابقة.:

وقد ورد هذا المعنى بكثرة في القرآن الكريم.

وفي المستوى الثالث يستعمل القرآن اليد، ليعبر بها عن معنى قبل وبعد، فالقرآن مثلا لا يأتيه التكذيب من الكتب التي سبقته، وجاءت قبله، ولا يجيء بعده كتاب فيبطله:

- ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾(4) .
- ﴿ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾(5) .
- ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾(6) .

ويدل السياق في الآية التالية،على أن الحفظة من الملائكة يحيطون بالإنسان من جميع الجوانب دلالة على معرفة الله بالجزئيات، جاء في سورة الرعد قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ ﴾(7) .

وكذلك الرسول جعل الله له ملائكة « يحرسونه من تعرض الشياطين لما أظهره

(1)النمل : ٦٣.
(2)سبأ : ٤٦.
(3)الحجرات : ١.
(4)فصلت : ٤٢.
(5)البقرة: ٦٦.
(6)مريم : ٦٤.
(7)الرعد : ١١.

عليه من الغيب، ويحوطونه من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة »[1] وكان هؤلاء الملائكة بين يدي الرسول أي أمامه وخلفه ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[2] .

وهكذا نلاحظ ثراء المعاني الخاصة باليد في كلام الله، وقد تأتى لها هذا الثراء من الألفاظ والمعاني المجاورة أولا، والكناية والاستعارة ثانيا، والإعجاز القرآني قبل كل شيء.

أما أجزاء اليد التي وردت في كتاب الله ، فهي :

١) الكف

الكف ما بها يقبض الإنسان ويبسط [3] والكف الراحة مع الأصابع ، وبهذه الكف ندعو الله ضارعين أن يوفقنا في ديننا ودنيانا، وعلى الكفين نستند عند السجود في الصلاة، وقد نهى الرسول عن الافتراش، والافتراش أن تضع ذراعيك على الأرض أثناء السجود، قال ﷺ : « اعتدلوا في السجود ، ولا يسجد أحدكم، وهو باسط ذراعيه كالكلب ».

ولمن يتوجه الإنسان بالدعاء ؟ لا شك أنه يتوجه إلى من يقدر على الإجابة عليه، فالأصنام أو الآلهة مثلا، هل تلبي الدعاء ؟ وهل تقضي حوائج الناس، هي أحجار باردة لا تنفع ولا تضر، هي جماد لا روح فيه ولا حياة، ولا تستجيب للمشركين مما يطلبونه، إلا كاستجابة الماء لمن يطلبه، وهو عطشان، ويبسط إليه يده من بعيد، فهل يفهم الماء، وهو جماد طلبه، فيأتيه مسرعا، فإذا كان الماء في بئر، أو حتى في الحنفية، وكنت في حاجة إليه، فهل يخرج من الحنفية ويصل إلى فمك ، هذا مستحيل، فكذلك من يرغب، دون الله عز وجل من الأصنام حاجة، فلا تستجيب له بشيء،

(١) الأشقر : زبدة التفسير ص ٧٧٢ـ ٧٧٣.

(٢) الجن : ٢٧.

(٣) الأصفهاني : المفردات ص ٦٥٢.

مما يريده، مهما كان هذا الشيء ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [1] .

ويدل تقليب الكفين على حال النادم، وما يشعر به في حال ندمه، ويظهر الندم من خلال قصة ذكرها القرآن، وهي قصة أخوين، كان لكل منهما بستان، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا، وكان هذا الأخير مقبلا على الدنيا، كشأن الذين لا يرون وجودا لإله، ولا بعثا ولا نشورا، وكان يستنكف من مجالسة الفقراء، ويتقزز من الجلوس معهم، ودخل ذات يوم مع أخيه إلى حديقته، وقد أجرى الله نهرا تسقى منه الجنتان من غير انقطاع، ووضع للبستانين سياج من نخيل، دخل الأخوان إلى الجنتين، وقد أخذ الكافر بيد أخيه يطوف به، ويريه عجائب ما في بستانه من ثمار، ولعله كان يقول له : انظر هذه الكروم، كم هي مثقلة بعناقيد العنب، يقول ذلك ، وهو يفتخر بهذه الثروة الطائلة التي توصل إليها بمفرده، دون إعانة أحد، وملأ الكفر والعجب جوانحه، فتمادى في غيه وضلاله ، وقال لأخيه لسوء غفلته : هذه الحديقة التي تشاهدها لا تفنى أبدا ، ثم تقدم خطوة أخرى، فأعلن عن كفره صراحة، وكذب بالبعث وقيام الساعة، وافترض أنه إذا رد إلى ربه فلا يكون إلا خيرا مما هو فيه، قياسا على الدنيا، وقد كان مشركو قريش الأثرياء يرون هذا الرأي، فأنكر أخوه عليه ذلك، وقال له : كيف تكفر بالذي خلقك وجعلك بشرا وأعطاك الصحة والمال، وسوى بدنك وعدل أعضاءك، أما أنا فأقول : إن الله هو ربي ولا رب سواه، وكان عليك عند دخول بستانك أن تقول: ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقد عيرتني بالفقر، فقد يرزقني الله خيرا من جنتك، ومن يدري فلعل الله يرسل على حديقتك صواعق، فيجعلها قاعا صفصفا، أو يشح ماؤها فتصبح الأشجار يابسة، وعندها لا تستطيع الإتيان به، ولم يته حديثهما، وإذا بعاصفة تهب على تلك الحديقة، فأصبحت خاوية على عروشها فأخذ ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ

(١) الرعد : ١٤.

عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ [1] .

فهل كان هذا القول منه بقصد التوبة من الشرك ؟ أو تمنى لو لم يكن مشركا، قبل أن تصاب جنته بالهلاك والدمار ؟

٢) الأصابع

جمع إصبع، والإصبع هو أحد أطراف الكف، وهي من الأجزاء الهامة في اليد كما سنرى، وبهذه الأصابع، نأكل ونشرب ونكتب ونحسب ونصنع، وبها نقوم بنظافتنا، وبها نتوضأ، وبالسبابة نتشهد في الصلاة ، وبها نعلن عن توحيدنا لله، لا نشرك به شيئا ، وما تقوم به اليد بأجزائها لا يمكن حصره، المهم أن اليد قد نوظفها في الخير، وقد توظف في الشر، فقوم نوح ، وقوم الرسول كذلك ، يستعينون بأصابعهم، فيسدون بها آذانهم حتى لا يسمعوا ما يقول نوح عليه السلام، فقد قال الله على لسان نوح، وهو يشكو إلى ربه من صنيع قومه : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ [2] .

وكذلك أمر المشركين والمنافقين مع الرسول، فإذا نزل القرآن وفيه ذكر الكفر (وقد شبهه الله بالظلمات) والوعيد على الكافرين (وقد شبهه الله بالرعد) والحجج البينة (وقد شبهها الله بالبرق) يسدون آذانهم بتلك الأصابع، التي أنعم الله بها عليهم، لئلا يسمعوا القرآن، فيدخل الإيمان إلى قلوبهم، ويتركوا دينهم، وترك عبادة الأصنام والأوثان عندهم موت [3] قال تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [4] .

والأظافر خلقها الله لحكمة بالغة، فهي تحمي أطراف الأصابع؛ لأنها أكثر

(١) الكهف : ٤٢.

(٢) نوح : ٧.

(٣) راجع السيوطي : تفسير الجلالين ص ٥ ـ ٦.

(٤) البقرة : ١٩.

تعرضا للإصابة، وبدون الأظافر لا تستطيع أن تحك جلدك، أو تلتقط الأشياء الدقيقة، وأخيرا فإن الأظافر هي الميزان الصحي للإنسان، إن كل ما فعله الإنسان ساعدت فيه إلى أكبر حد حركة إبهام يده، ولو كانت غير متحركة كإبهام القرد مثلا، فإنه لا يستطيع أن يفعل الكثير مما يفعله الآن».

٢) البنان

يطلق البنان على الأصابع، وعلى أطرافها، وعند الراغب: « البنان الأصابع، قيل سميت بذلك لأن بها صلاح الأحوال التي يمكن للإنسان أن يبنّ بها، يريد أن يقيم به »[(١)]

وقد جاء لفظ البنان في آيتين هما قوله تعالى :

أ) ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[(٢)] .

يرد القرآن على المكذبين[(٣)] بإحياء الموتى يوم القيامة : إذ لم تقبل عقولهم أن تعاد الأجسام كما كانت في الدنيا، وقد رمت العظام واختلطت بالتراب، وبعضها الآخر قد ذهب في بطون الحيتان أو السباع أو الطيور الجوارح، وحسبانهم باطل فالله يجمعها، بعد تفرقها، ويردها إلى بعضها كما كانت بدون زيادة أو نقصان، حتى أصغرها وأدقها، وهو البنان ويعني بالتسوية « إعادة خلق البنان مقومة متقنة، فالتسوية كناية عن الخلق، لأنها تستلزمه »[(٤)] ويذهب مصطفى محمود إلى أن المقصود ليس إعادة الأجسام فقط ، وإنما تعني الآية أن الله قادر أيضا على إعادة البصمات « يقول الله هذا الكلام في مقام التحدي مشيرا بأن هناك معجزة كبرى في

---

(١) الأصفهاني : المفردات ص ٨٠.

(٢) الإنسان : ٣ ـ ٤.

(٣) نزلت هذه الآية في أبي جهل الذي كان يقول : أيزعم محمد أن يجمع الله هذه العظام بعد بلاها وتفرقها ويعيدها خلقا جديدا، وقيل نزلت في غيره، وتنطبق على كل من يكذب بعودة الأجسام بأرواحها.

(٤) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٩ص ٣٤١.

تسوية البنان، وبعثه على صورته الأولى، أكبر من إحياء العظام، وهو أمر لم يكشف سره إلا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة، حينما عرف أن لكل إنسان بصمة خاصة به، رسمت على بنانه،لا يتفق اثنان في بصمة واحدة منذ أيام آدم حتى التوائم »[1] .

ب) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2] .

تخبر هذه الآية عن مشاركة الملائكة في القتال في غزوة بدر ، وهي من النعم التي يذكر بها الله الرسول والصحابة، وكان دورهم تثبيتهم على القتال، وتبشيرهم بالنصر، وتكثير سوادهم، وبهذه المشاركة يملأ الله قلوب المشركين بالخوف والرعب، وأمر الله المسلمين بالأماكن التي يتوجهون إليها في أجسامهم عند قتال أعدائهم، وهي ضرب مقاتلهم من جهة الأعناق، لأنها أسرع في القتل، وكذلك الضرب على أطراف الأصابع، لأن الأصابع هي التي تقبض على السيف وغيره، فإذا ضرب البنان تعطل المقاتل من الأعداء عن القتال.

٤)الأنامل

الأنامل وجمعها الأنملة، وهي عقدة الإصبع أو سلاماها، أي المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظفر، وقد جاء في القرآن للتعبير عن غيظ اليهود من قوة المسلمين، وعجزهم عن الانتقام منهم، ومعلوم أن المسلمين أصبحوا مهابين بعد انتصارهم في غزوة بدر، وقد مات اليهود غيظا وكمدا بعد هذا الانتصار، ولم يصدقوا أن المسلمين هم الذين انتصروا في هذه الغزوة، فأصبحوا يكيدون للمسلمين عن طريق الخفاء، وامتلأت قلوبهم حقدا وغلا ، وقد وعد الله المؤمنين بإتمام نعمته ونصره، وإظهار دينه، وليزدد اليهود غيظا وليموتوا بغيظهم، قال تعالى :

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

(١)مصطفى محمود : القرآن محاولة لفهم عصري ص ٢٣٣.

(٢)الأنفال : ١٢.

بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[1] .

٥)الذراع

يبدأ الذراع من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى، ويستخدم في القيس عوض للمتر الآلي، وذراعا الرجل المتوسط تساوي مترا، وقد جاءت في القرآن بمعنى القياس، ومقدار الطول، فالسلسلة التي توضع في عنق من أخذ كتابه بشماله ذرعها: أي طولها سبعون ذراعا، ولا يعني أن هذه السلسلة بهذا الطول، ولكن القرآن يقصد شدة التعذيب، والتنكيل الذي يلاقيه المكذب، قال تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾[2] وهذه السلسلة ـ كما قال سفيان الثوري ـ « تدخل في دبره ، حتى تخرج من فيه ».

٦)المرفق

المرفق في اللغة ما ينتفع به ويستعان، ومن المرافق المعروفة الماء والشرب والكهرباء وغيرها مما ينتفع به سكان المدينة، والمرفق الذي يهمنا هو موصل الذراع في العضد، أي المفصل الذي نتكئ عليه، وتحته تكون وسادة عادة، وقد ورد في القرآن المرفق بمعنى ما ينتفع به، قال تعالى متحدثا عن أهل الكهف وقد وسع (ينشر) لهم الله وهيأ لهم ما به ينتفعون ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴾[3] ومرافق أهل النار سيئة جدا، ومرافق أهل الجنة حسنة وجيدة، والقرآن بين معيشة أهل الجحيم ومعيشة أهل الجنة :

ـــ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي

(١)آل عمران : ١١٩.

(٢)الحاقة : ٣٠ ـ ٣٢.

(٣)الكهف :١٦.

ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (١) .

ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٢).

وقد أوجب الله غسل الأيدي على من أحدث، عن أنس بن مالك قال : « كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قيل له فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال : كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث » ويكون الغسل من أطراف الأصابع إلى المرفق، وهو المفصل الذي بين الساعد والعضد، قال تعالى : ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ (٣) .

وقد اختلف الفقهاء في إدخال المرافق في الوضوء، فذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة إلى وجوب إدخالها، وذهب البعض الآخر إلى أنها غير داخلة في غسل اليدين « والسبب في اختلافهم الاشتراك الذي في حرف (إلى) وفي اسم اليد في كلام العرب، وذلك أن حرف (إلى) مرة يدل في كلام العرب على الغاية، ومرة يكون بمعنى مع، واليد أيضا في كلام العرب تطلق على ثلاث معان على الكف فقط، وعلى الكف والذراع والعضد، فمن جعل إلى بمعنى مع أو فهم من اليد مجموع الثلاثة الأعضاء أوجب دخولها في الغسل، ومن فهم من إلى الغاية، ومن اليد ما دون المرفق، ولم يكن الحد عنده داخلا في المحدود، لم يدخلها في الغسل » (٤).

وعند المالكية « يجب غسل اليدين إلى المرفقين بإدخالها في الغسل مع وجوب تخليل الأصابع ومعاهدة تكميش الأنامل وغيرها » (٥) .

(١)الكهف : ٢٩.

(٢)الكهف : ٣١.

(٣)المائدة : ٦.

(٤)ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج ١ ص ٨.

(٥)محمد العربي القروي : الخلاصة الفقهية ص ٧.

٧)العضد

العضد ما بين المرفق إلى الكتف، ويستعمل في القرآن على وجه الاستعارة، ففي هذه الآية جاء العضد بمعنى المعين ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [1] أي أعوانا من الشياطين والكفار، وقريب من هذه الآية قوله تعالى، وقد استجاب لطلب موسى بان يرسل معه أخاه هارون، يساعده في دعوة فرعون إلى الإيمان بالله واحدا لا شريك له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [2] أي سنقويك وندعمك بإرسال أخيك معك .

الرجل

الرجل هما في الحقيقة رجلان،كما أن اليد يدان، والرجل بالنسبة للجسد من أصل الفخذ إلى القدم، وقبل أن نتحدث عن الأجزاء التي ذكرها القرآن للرجل، نتحدث عن الرجل، هذا العضو الهام في جسم الإنسان.

ميز الله الإنسان بالسير أو المشي على رجلين كالطيور، ولتصور لو كان يمشي على يديه ورجليه، فكيف يكون حاله ؟ إن الحيوان الذي يمشي على أربع يكون أحسن حال منه، فقد خلق الله له ذيلا يستر به عورته، أما الإنسان فيكون أشد بشاعة وقبحا من أي مخلوق آخر يمشي على أربع، ولكن الله كرم الإنسان، فجعل جسمه مستقيما معتدلا، وكرمه أكثر فأعطاه العقل الذي به يكون سيد الحيوانات كلها، بل والمتصرف في الدواب والطيور، وكل ما خلق الله في هذا الكون هو ملك للإنسان، يتصرف فيه اعتمادا على عقله، وبتوجيه من الله على لسان رسله ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [3]

---

(١)الكهف : ٥١.

(٢)القصص : ٣٥.

(٣)النور :٤٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ نعم ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ والماء به الحياة، وبه الدواء، فهذا أيوب عليه السلام لما ابتلاه الله بمرض، نصحه بأن يركض برجله أي: يضرب بها الأرض فنبعت العين، فاغتسل فيها، ثم ضرب أخرى فنبعت عين صافية رقراقة، فشرب منها فشفي، جزاء صبره، وتحمله ما ابتلاه به ربه ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[(١)] .

ولمكانة الرجل واليد في جسم الإنسان، عاقب فرعون موسى السحرة، بقطع أرجلهم وأيديهم من خلاف، أي اليد اليمنى من آخر الكف، والرجل اليسرى من مفصل الكعب، عقابا لهم، لإيمانهم بأن ما أتى به موسى من معجزات، والمتمثلة في هذا الثعبان الذي يلقف حبالهم ليس إلا معجزة من الله سبحانه وتعالى، وهذا العقاب نهاية في التعذيب والتنكيل، قبل الصلب على جذوع النخل، ولعله كان من الأحكام المعمول بها في عصر الفراعنة ، قال تعالى : ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾[(٢)] .

ونهى الله المرأة أن تضرب برجلها الأرض، إذا مشت ليسمع صوت خلخالها، قال الزجاج: وسماع هذه الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها، وأوجب التوبة على المرأة التي تقوم بهذا الأمر ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٣)] .

وكانت المرأة تبايع الرسول على الإسلام، والإسلام يعني عدم الإشراك بالله، وفي عصر الجاهلية تقبل المرأة على الأصنام إقبالا شديدا، وهي أكثر من الرجل استعدادا لتقبل الخرافات، وعبادة الأوثان والاعتقاد فيها، والإسلام ينهى عن

(١)ص : ٤٢.

(٢)طه : ٧١.

(٣)النور : ٣١.

الزنى، ويدعو إلى الإقلاع عنه بصورة نهائية، والكف نهائيا عن قتل البنات ووأدهن، وأن لا تنسب لزوجها كذبا وبهتانا ولدا ليس منه، وإنما هو من رجل آخر، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

و﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ « كناية عن أنه ولدهن من أزواجهن، لأن الولد يحمل في البطن التي هي بين اليدين، ويولد بين الرجلين » (٢)

هذان الرجلان تشهدان على الإنسان يوم القيامة، كما يشهد اللسان واليدان، فيخلق لها النطق فتتكلم، وتتحدث عما عمل هذا الإنسان بهما، وما اقترف بواسطتهما من ذنوب، وهكذا فإن الأعضاء التي كانت عونا له على أعماله، تشهد ضده، قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (٤) .

واليد والرجلان واللسان أعضاء تنفيذ، فهي مأمورة، أما الآمر فهو العقل الذي يوجه تلك الأعضاء إلى ما يريد هو، وقد تتدخل النفس الأمارة بالسوء فتدفع صاحبها إلى اقتراف الذنوب.

ومن أجزاء الرجل ذكر القرآن ما يلي :

١) الساق

- الساق ما بين الركبة و القدم، هكذا في المعجم الوسيط، وفي منجد لويس

---

(١) الممتحنة : ١٢.

(٢) عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ص ٧٣٧.

(٣) النور : ٢٤.

(٤) يس : ٦٥.

شيخو ما بين الكعب والركبة، ومهما يكن من أمر فقد دل هذا العضو في القرآن على معنيين :

أحدهما: حقيقي، فعندما جاءت بلقيس ملكة سبأ إلى سليمان ودخلت قصره، رأت ردهاته المصنوعة من زجاج فظنتها ماء، فشمرت عن ثيابها، وكشفت عن ساقيها، خوفا من البلل ، قال تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾(1) .

وعند وضع الإنسان في كفنه تلصق الساق الواحدة إلى الأخرى ، وبذلك انتهى المشي عليها في هذه الدنيا، وحان وقت الإنابة ، والرجوع إلى الله، فلا تنفع الرقى، ولا ينفع دواء الطبيب، قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾(2) .

وثانيهما: مجازي، ويكنى به عادة عن شدة الأمر، فالمثل العربي « كشف عن ساقه » يضرب في شدة الأمر، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾(3) .

أي يوم شدة الهول، وهو يوم القيامة، يطلب منهم السجود لله الواحد القهار فيعجزون، لأنهم لم يسجدوا من قبل، عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقا »(4) .

وهكذا « يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة، ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون، لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود،لأنهم لم

(1)النمل : ٤٤.

(2)القيامة : ٢٦ ـ ٣٠.

(3)القلم : ٤٢.

(4)رواه البخاري وغيره.

يكونوا آمنوا بالله في الدنيا، ولا سجدوا له »[1].

٢) القـدم

القدم ما يطأ الأرض من رجل الإنسان، وفوقها الساق وبينهما الرسغ، والقدم ما بين طرف إبهام الرجل وطرف العقب، وقد جاء القدم في القرآن في أربع آيات، اثنتان في صيغة المفرد، واثنتان في صيغة الجمع، ويستعمل مجازا مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2] والمقصود « بشر المؤمنين بأن لهم سبقا في الفضل، ومنزلة رفيعة عند ربهم »[3].

والآية الثانية، التي ذكر فيها القدم، تتعلق بعدم نقض العهد حتى لا تزل القدم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾[4] وهي أيمان البيعة، نهي الذين بايعوا الرسول عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين، ومن نقض العهد فقد أخطأ خطأ كبيرا، وقد يكون في ذلك هلاكه، بعد أن كان راسخ القدم في الثبات على العهود، والدوام عليها[5].

والآية الثالثة، يمن الله فيها على المسلمين في غزوة بدر إذ هيأ أسباب النصر، ومنها الراحة بعد النوم، ولا يكون نوم، إلا بعد زوال الخوف، ونزول المطر لتلطيف الجو، والقيام بالاغتسال والوضوء، لإقامة الصلاة، بعد أن سال الوادي، الذي نزلوا قربه، وقيامهم بالصلاة من شأنه أن يبعد عنهم وسوسة الشيطان، وحديثه لهم من وقوع الهزيمة، فيزيد في خوفهم وإفشالهم، كل هذه الأسباب وغيرها ثبتت قلوب المسلمين، وملأتها صبرا وإقداما، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ

(١) الأشقر: زبدة التفسير ص ٧٦٠.

(٢) يونس: ٢.

(٣) عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر ص ٢٦٥.

(٤) النحل: ٩٤.

(٥) راجع نفس المرجع ص٣٥٩.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾(١) فكيف يثبت الله الأقدام بعد نزول المطر ؟

لقد كانت الأرض، قبل نزول المطر كثيرة الغبار، فاشتدت التربة بعد نزول الغيث، وأصبحت رخوة، بحيث تجعل قدم المحارب ثابتة لا تزل، وهذا يعني أن لا بد من توفر أسباب طبيعية خاصة بمكان القتال، من حيث صلاحية الأرض، وحالة الطقس .

أما الآية الأخيرة، فتتعلق بأخذ المجرمين، والذين لم يؤمنوا بربهم، ولم يصدقوا أنبياءه ، من نواصيهم ومن أقدامهم، ثم يلقى بهم في النار، وهؤلاء كما رأينا عند الحديث عن النواصي معروفون بأنهم من حزب النار، بما وضع على جباههم من علامات أو لافتات، تدل على أنهم كذلك ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾(٢) .

٣)الكعبان

الكعب العظم البارز، عند ملتقى الساق والقدم، وهما عظمان ناشزان من جانبي القدم، وقد ورد ذكرهما في القرآن ،عند الحديث عن غسل الرجلين، وحددت الآية منتهى الغسل، وهو الكعبان ، قال تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾(٣) .

٤)العقب

العقب بكسر القاف، عظم مؤخر القدم، وهو أكبر عظامها، والعقب آخر كل شيء ، أو خلفه، وكل شيء يجيء بعد آخر، فهو عقب له ، وقد استعمل القرآن القدم بمعنى مؤخر القدم، واستعمل العقب بمعنى مؤخر كل شيء ، فالشيطان في

(١)الأنفال : ١١.

(٢)الرحمن : ٤١.

(٣)المائدة : ٦.

غزوة بدر نكص على عقبيه ، أي رجع القهقرى، بعد أن زين للمشركين الخروج لقتال المسلمين، فلما قرب المسلمون منهم، وعرف أن النصر للمسلمين ، انقطعت وسوسته لهم، وقال في نفسه إني بريء منهم، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(1) .

وشبيه بالشيطان الذي نكص على عقبيه حالة المشركين، فالله يذكرهم يوم القيامة، بأنهم كانوا إذا تلا عليهم الرسول القرآن ، تراجعوا إلى الوراء ، ونكصوا على أعقابهم، كناية عن كراهتهم لسماع القرآن ، قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾(2) .

ويفسر الانقلاب على الأعقاب بالرجوع إلى الشرك والكفر، فالتوجه في الصلاة إلى الكعبة في آخر الأمر بعد أن كانت قبلته ﷺ الكعبة، ثم بيت المقدس لمدة سبعة عشر شهرا أمر الله رسوله أن يتوجه إلى ما كان عليه في مكة، وهو أن تكون قبلته الكعبة، أمر الله نبيه بذلك ليعلم بالفعل ، والله يعلم بالظاهر والباطن، من يتوجه في صلاته مع الرسول ، ممن لا يتوجه، ومن كان إيمانه قويا، ومن كان إيمانه ضعيفا، وقد ارتد بعض الناس إزاء ما شعروا، أنه تردد من الرسول وحيرة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾(3) .

وسواء ارتد البعض عند تحويل القبلة إلى ما كانت عليه قبل الهجرة، أو رجع البعض الآخر عند وفاة الرسول إلى الكفر، فلن يضر الله سيئا ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ

(1)الأنفال : ٤٨ .

(2)المؤمنون: ٦٦ .

(3)البقرة : ١٤٣ .

يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1] .

والأعقاب لا بد من غسلها عند الوضوء ، وقد حثنا الرسول على غسلها ، فكان يقول : ويل للأعقاب من النار.

والرجل مع القدم والعقب غسلها في الوضوء فرض، فعند المالكية « يجب غسل الرجلين مع إدخال الكعبين في الغسل، ويجب تعهد ما تحتها، كالعرقوب[2] وباطن القدم بالغسل، ويندب تخليل أصابعها، ويكون الدلك باليد اليسرى »[3]

فمن توضأ هكذا، تذهب الخطايا والذنوب مع الماء، في غسل وجهه ويديه ورجليه وفمه ، وبعد الوضوء يخرج نقيا طاهرا من الذنوب ، قال ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم : « من توضأ هكذا غفر له ما تقدم من ذنبه، وكانت صلاته ومشيه إلى الجامع نافلة ».

هذا بالنسبة للوضوء أما الغسل فنعني به تعميم ظاهر الجسد بالماء، وفرائضه خمسة، وهي النية، والموالاة ، والدلك ، وتخليل الشعر ، وتعميم الماء، أما موجباته فأربعة: خروج المني أي بروزه من ذكر الرجل، أو فرج المرأة ، ومغيب الحشفة، والحيض ، والنفاس.

واجب جسمك عليك أن تقوم بنظافته كاملا مرة في الأسبوع ، وبهذه النظافة تسمو عن مرتبة الحيوان، فإذا أخلصت العبادة لله صعدت إلى مرتبة أعلى، وهي مرتبة الملائكة، وهي منزله يصل إليها من يعمل على التوفيق بين حاجات الجسد، وحاجات الروح ، ومن أراد الوصول إلى هذه المنزلة فليكن دليله الإسلام ، ومن أركانه الصلاة ، وقبل أداء الصلوات، تقوم بتنظيف أهم الأعضاء في جسمك، قال ﷺ: « حق على كل مسلم الغسل والطيب والسواك يوم الجمعة » وقال أيضا « على كل

---

(١) آل عمران : ١٤٤.

(٢) العرقوب وتر غليظ فوق العقب.

(٣) محمد العربي القروي : الخلاصة الفقهية ص ٨.

مسلم الغسل يوم الجمعة، ويلبس من صالح ثيابه ، وإن كان له طيب مس منه »[1].

النوم

ومن الأشياء اللازمة للجسم الأكل والشرب والنوم ، فجسم الإنسان في حاجة إلى النوم ، وهو من النعم التي أغدقها الله على عباده، ولولا النوم لما كان للإنسان حياة ولا بقاء ، ففيه يأخذ الجسم كفايته من الراحة، وبه يقع تجديد نشاطه، حتى يستعد ليوم جديد، وقد من الله على الناس بأن جعل لهم ظلمة الليل، تسترهم كاللباس، وجعل الدخول في النوم مرحلة جديدة ، فيها يستريح النائم من العمل في أثناء النهار، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾[2].

والنوم تذكير بالموت كل يوم، ولكن الناس لا يعلمون ، فعند النوم ، يبعد الله الروح في الظاهر فيمتنع التصرف والشعور عن الجسم ، حال النوم، أما في الموت الحقيقي، فيبعد الله الروح عن البدن ظاهرا وباطنا، فتمتنع كل آثار الحياة[3] قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4].

ولهذا قالوا في تعريف النوم، هو أن يتوفى الله النفس من غير موت، وقالوا النوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل[5].

فالله هو الذي ينيم الإنسان بالليل، وهو الذي يقبض النفوس التي يميز بها الإنسان، ويشعر في حال اليقظة، وهو الذي يعلم ما يقترفه الإنسان من شر، وما قام

(١)رواه أحمد والشيخان.

(٢)الفرقان : ٤٧.

(٣)انظر عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ص ٦١٢.

(٤)الزمر : ٤٢.

(٥)راجع الراغب الأصفهاني : المفردات ص ٧٧٧.

به من خير في نهاره ، وفي اتصاله بالناس، وهو الذي يوقظ من نوم الليلة التالية للنهار، الذي أذنب فيه الإنسان، والذي قدر الله فيه أرزاق العباد ؛ نعم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

فالنوم آية من آيات الله الدالة على قدرته وعنايته ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[2].

وذكر النعاس في القرآن، وهو فتور في الحواس، يكون في أول النوم عادة، ويبدو أنه جاء في القرآن على سبيل المجاز، فقد سكن الله قلوب الصحابة ، الذين شاركوا في غزوة بدر، حتى ناموا آمنين غير خائفين ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾[3].

وقيل «النعاس هاهنا عبارة عن السكون والهدوء»[4] وكذلك الأمر بالنسبة للمشاركين في غزوة أحد ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[5].

الرؤيا والمنام

ولعلاقة الرؤيا أو الأحلام بالنوم نتحدث عن هذه الظاهرة الطبيعية عند الإنسان، فنقول : « عندما ينام الإنسان تصفو نفسه، ويزال الغبار عن بصيرته ، فيخترق الحجب، ويرى بأم عينيه آفاقا لا تحد، وكأنه ينتقل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، فيصبح قادرا على التنبؤ والاكتشاف و خاصة بالنسبة للأنبياء »[6]

(١)الأنعام : ٦٠.

(٢)الروم : ٢٣.

(٣)الأنفال : ١١.

(٤)الراغب: المفردات ص ٧٦٠.

(٥)آل عمران : ١٥٤.

(٦)المؤلف: الرؤيا والمنام في القرآن والسنة (مخطوط).

وتدل الأحلام« على سلامة البدن النفسية والجسمية ، وقد تعمل على تحقيق التوازن النفسي: إذ هي عامل استقرار وتهدئة إزاء الكبت الذي يواجهه الإنسان في واقعه اليومي، أو هو حلول للهواجس التي تنتاب الإنسان، فيجد الحل لمشاكله على الأقل في أثناء النوم ، ولا يوجد كبير فرق بين المؤمنين ، وغير المؤمنين، في مستوى الرؤى والأحلام، فكلهم عند النوم خلق الله وعباده : إذ أن الرؤى فطرية في الإنسان خلقت معه، كما خلقت الميول والرغبات والنزعات في نفسه »[1] .

وقد ورد في القرآن سبع رؤى، أربع خاصة بالأنبياء، والثلاث الباقية، رآها غيرهم من الناس، والرؤى السبع هي :

١) رؤيا الرسول : رأى في المنام قبيل غزوة بدر جيش المشركين قليلا ، وأخبر برؤياه أصحابه، فتشجعوا للقاء المشركين، وقد حملوها على ظاهرها، وكانوا يخافون من جيش المشركين لكثرته ، فكانت هذه الرؤيا من أسباب النصر، وقلة العدد في الرؤيا « رمزا وكناية عن وهن المشركين، لا عن قلة عددهم »[2] .

٢) رؤيا يوسف : وقد قصها على أبيه، وحذره من أن يسمعها إخوته ، فيكيدون له، والرؤيا كما جاء على لسانه في القرآن : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[3] و هذه الرؤيا فيها إعداد لتحمل النبوة ، وفيها بيان لثقلها ، وقد قص يوسف على إخوته، وكان من نتيجة هذا القص، أن كاد له إخوته، فوقع إلقاؤه في بئر، ثم أخرج منه ليباع، ولما اشتد عوده، يبتلى بامرأة العزيز، ويتهم بإغرائها، فيلقى به في السجن، وفي السجن يستمع إلى رؤى أربع هي :

٣) رؤيا الخباز : فقد رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا، تأكل الطير منه، وعبرها يوسف بأنها ترمز إلى أن الرجل سيصلب، فكما أن الإنسان يأكل الخبز، فكذلك

---

(١)نفس المرجع.

(٢)الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ج ١٠ ص ٢٢.

(٣)يوسف : ٤.

الطيور تأكله، ولكن من رأس هذا الرجل ، بعد صلبه ﴿وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾(١) .

٤) رؤيا الساقي : رأى في المنام أنه غرس شجرة عنب، فنبتت ، فخرج منها عناقيد، فعصر تلك العناقيد، ثم سقى الملك ذلك العصير ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾(٢) وعبرها يوسف على حقيقتها ، وذلك أن الساقي سيخرج بعد ثلاث أيام، ويقربه الملك إليه، بأن يصبح ساقيه، ولعله استنتج الأيام الثلاث من الغرس، والإنبات، والعصر.

٥) رؤيا الملك : رأى ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾(٣) رأى يوسف أن مجال الرؤيا هو الفلاحة، فهناك السنابل والخضرة والأبقار العجاف والسمان، بالإضافة إلى السنابل اليابسات، ولاحظ وجود مقابلة بين الخصب والجدب، واستعان بتحديد المدة الزمنية الواردة في الرؤيا، فتبين له أن مدة الخصب والجدب تدوم كل واحدة منهما سبع سنوات، وبالاعتماد على هذه المعطيات فسر الرؤيا ، فأمرهم بالزراعة مدة سبع سنين، مع المداومة على ذلك، وما يحصد يترك في سنبله، ما عدا ما يحتاجون إليه من مؤونة، وبعد هذه المدة تأتي سنوات الشدة السبع، فيأكلون ما تركوه في سنبله، ويتركون القليل منه، ليكون بذرا للزرع القادم، ثم تزول الشدة، بنزول الغيث بعد ذلك ، فيقبل الناس على عصر ما يقدرون على عصره ، قال تعالى على لسان يوسف :

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾(٤) .

(١) يوسف : ٣٦.

(٢) يوسف : ٣٦.

(٣) يوسف : ٤٣.

(٤) يوسف: ٤٧ ـ ٤٩.

وفي آخر هذه السورة، يتم تفسير رؤيا يوسف، فبعد أن يأتي أبويه وإخوته إلى مصر يجلسهم على السرير، ويحيوه، بأن يهبطوا برؤوسهم نحو الأرض، تعظيما له وتشريفا، وكانت هذه تحية الملوك في عصره، وقال يوسف : ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾[1] .

وشكر الله على المكانة التي تولاها في مصر، وهي التصرف في أمور مصر المالية، كما أنعم عليه بالقدرة على تفسير الأحلام ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2] وكذا يكون الاعتراف بنعمة الله ، وشكره على جميع أفضاله.

٦) رؤيا إبراهيم يذبح ابنه : رأى في المنام أنه يذبح ابنه، ورؤيا الأنبياء حق، وتكرر هذا الحلم فأخذ ولده وقرر ذبحه، ووجد من ابنه كل الطاعة والمساعدة، ولما استعد لذبحه، إذا بملك يأخذه من يديه، ويقدم له كبشا أملح ذا قرنين، وهكذا صدق إبراهيم الرؤيا، وأظهر الخضوع لربه، وعبر ابنه عن الطاعة والصبر في معناهما المطلق، قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[3] .

٧) رؤيا الرسول دخول مكة، والطواف بالبيت : كان الرسول يتحرق شوقا للرجوع إلى مكة التي خرج منها طريدا، فمكة أثيرة لدى الرسول ، ففيها ولد، وفيها نشأ، وخرج منها، وهو في الثانية والخمسين من العمر، كانت بالنسبة إليه أحب أرض الله إلى الله ، ففيها أول بيت وضع لعبادة الله، وكانت بالنسبة إلى

(١) يوسف : ١٠٠.
(٢) يوسف : ١٠١.
(٣) الصافات : ١٠٢ ـ ١٠٧.

الرسول أحب أرض الله إليه، كان في المدينة يفكر في مكة، فماذا هو صانع، وكله شوق إلى تلك البقعة التي كرمها الله، وإذا به يرى في المنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت فأخبر أصحابه، ففرحوا بهذا الخبر السار، لعلمهم أن رؤيا الرسول حق، وذهب في اعتقادهم، أنهم سيدخلون هذا العام مكة ، محلقين رؤوسهم ومقصرين، ووقع صلح الحديبية، ورجع المسلمون من حيث أتوا ، فلم يقع طواف، ولا عمرة، وظهر المرجفون في صفوف المسلمين، وقالوا أين تلك الرؤيا من الواقع المر الذي نحن فيه، ونسوا أن الرؤيا لم تكن محددة بوقت، فهي تشير إلى المستقبل الممتد، ثم أنها تتعرض إلى إتمام الحج في حال من الأمن والطمأنينة، والحال التي سبقت صلح الحديبية، كانت لا تخلو من خوف وتهديد من قبل قريش ، قال تعالى :

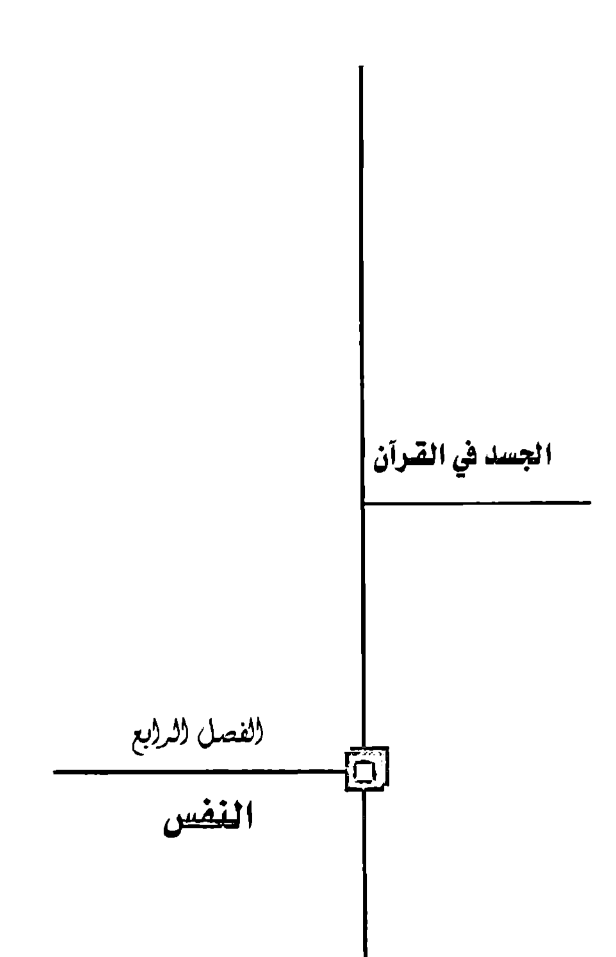
﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1] .

هكذا نرى أن الأحلام تبدأ، عندما تسترخي أعضاء الجسم ، وتسكن حواسه عن الحركة، ويستسلم العقل هو الآخر للراحة، وتغيب الإرادة والوعي، وتتوقف الوظائف البد نية عن العمل جزئيا أو كليا ،هذا بالنسبة للرؤى الثلاثة على الأقل (رؤيا الخباز، ورؤيا الساقي ، ورؤيا الملك) ولكن الجسم، كان هو الأرضية التي انطلقت منها هذه الرؤى، فقد كان البدن والعقل والنفس قبيل النوم في حالة تركيز وتفكير، وترقب لما سيحدث، فالخباز والساقي يفكران في مصيرهما وينتظران حكم الملك عليهما، والملك يفكر في ما ستؤول إليه حال مملكته، إذا لم تجد رعيته الغذاء والطعام، وحال استسلامهم للنوم، برز الجواب الذي كان يشغلهم، وأخذ حيزا كبيرا من تفكيرهم، ولكن هذا الجواب عند النظر فيه، وجدوا امتزاج الحقيقة بالرمز، وهذا الامتزاج يتطلب تفكيكا ومعرفة جيدة بتعبير الرؤيا، أما الرؤى الأربعة الخاصة بالأنبياء فقد جاءت على حقيقتها تقريبا.

---

(١)الفتح : ٢٧.

مسألة الأحلام، أو الرؤيا، تدلنا على وجود أبعاد أخرى للجسم، غير الأعضاء التي نتحسس بها ما حولنا، ولكنها لا تقل قيمة عن الأعضاء التي رأيناها، هذا إذا لم تكن أهم منها منزلة، وأرقى منها قيمة، وقد رأينا أعلاه العقل، والذي لا يفرق القرآن بينه وبين القلب، الذي ميز الله به الإنسان عن الحيوان، ومن الأبعاد الأخرى للجسم نذكر النفس، أو الروح.



الجسد في القرآن

الفصل الرابع

النفس

احتار الناس في كنه النفس، واختلفوا في تحديدها، ولعل مرد هذا الغموض يعود إلى الأبعاد المختلفة التي تنسب إلى النفس، فتأتى عن ذلك غزارة في المعاني، والتباس في المفاهيم، وخاصة عند الانتقال من المجرد إلى المحسوس، فعندما نعود إلى لسان العرب، نجد من معاني النفس الروح، والنفس كذلك جملة الشيء وحقيقته، تقول قتل فلان نفسه، وأهلك نفسه، أي أوقع الهلاك بذاته كلها، ومعنى ذلك أن في الإنسان أنفسا متعددة، والنفس أيضا، ما يكون به التمييز عند ابن خالويه، ومن معاني النفس كذلك الدم، لأن النفس أي الروح تخرج بخروجه، وتطلق النفس على الإنسان جميعه جسما وروحا.

وينسب إلى عبد الله بن عباس قوله: لكل إنسان نفسان، إحداهما نفس العقل الذي يكون به التميز، والأخرى نفس الروح الذي يكون به الحياة، ويرى الزجاج أن لكل إنسان نفسين إحداهما نفس التميز، وهو هنا يتفق مع ابن عباس، إلا أنه يعتقد أن نفس التميز تفارق الإنسان، إذا نام فلا يعقل بها، والأخرى نفس الحياة (ويسميها ابن عباس الروح) وإذا زالت زال معها النفس (بفتح السين) وتطلق النفس كذلك على الجسد.

من خلال هذه المعاني المختلفة نرى أن لفظ النفس يشمل جميع ما به يكون الإنسان إنسانا، فمن قال نفسا فكأنه قال إنسانا، وما يحويه هذا الإنسان من أعضاء ومشاعر وميول وروح وعقل وتميز وغيرها، فما هو صدى النفس في القرآن ؟

تكرر لفظ النفس في القرآن قرابة ثلاثمائة مرة، ووردت نكرة ، ومعرفة، ومضافة إلى ياء المتكلم، وضمير المخاطب، والغائب، وهذا التنوع في مستوى الخطاب، نتج عنه ثراء في المعاني، وتعدد في الأساليب كما سنرى.

وقبل الإلمام بمعاني النفس الإنسانية في القرآن نشير إلى معنيين للنفس ، وردا في القرآن وهما:

١)النفس مضافة إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك في خمس آيات، وبما أن الله لا مثيل له،

ولا شبيه مصداقا للآية الكريمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] فقد أصبح لمعنى النفس هذه المضافة إلى الحق، جل وعلا، معان نستشفها من خلال الآيات التالية:

أ) ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[2] أي عقابه، وقوله تعالى:

ب) ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[3] يعني جعلتك من خواصي لتحمل رسالتي إلى الخلق، وقوله تعالى:

ج) ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾"[4] أي تعلم ما أقول وأفعل، ولا أعلم ما تقول وتفعل، وهو المعنى المناسب لهذه الآية: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[5].

وقال:

د) ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[6] يعني فرض وأوجب على نفسه، تفضلا منه تعالى.

٢) النفس، وتعني الأهل، والأخوة، والعشيرة، وتكون مضافة إلى ضمير المخاطب، أو الغائب مثل قوله تعالى متحدثا عن أصل الرسول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[7] أي من عشيرتكم وهو بشر مثلكم، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[8] يعني ليس غريبا عنهم، وقوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[9] أي سلموا على أهلها الذين هم إخوانكم، كأنهم أنفسكم.

---

(١) الشورى: ١١.

(٢) آل عمران: ٢٨.

(٣) طه: ٤١.

(٤) المائدة: ١١٦.

(٥) الأنبياء: ٢٣.

(٦) الأنعام: ١٢.

(٧) التوبة: ١٢٨.

(٨) النحل: ٨٩.

(٩) النور: ٦١.

ومن معاني النفس جعل الشخص خاصا بالمتحدث مثل، قول الملك عن يوسف : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ (١) أي يجعله من أهل مشورته، ومن خاصته.

أما النفس الخاصة بالإنسان، والتي تردد ذكرها كثيرا في القرآن، فنجدها تطلق على الإنسان جسدا وروحا، كما تطلق على الروح التي بدونها تنخرم الذات الإنسانية، والنفس في القرآن هي موطن العلم والأهواء والميول والخير والشر، وغيرها من المعاني التي ستعرض لها لاحقا.

١) خلق النفس

أشار القرآن في آيات عديدة، إلى خلق النفس، وتسويتها ، وتعديل أجزائها، وجعل كل جزء صالحا لما خلق له، وأغلب هذه الآيات تتحدث عن مرحلة ما بعد آدم، الذي خلق من طين، ثم نفخت فيه الروح، أما المرحلة الثانية، فهي خلق حواء من ضلع آدم، ثم جاءت مرحلة التزاوج والتناسل، والآيات التالية، تؤكد على مسألة التكاثر، عن طريق الزواج ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (٢) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (٣) .

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (٤) .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ (٥) .

وبعد تسوية هذه النفس جسدا وروحا، جعل الله لكل نفس ملكا، يراقب

---

(١) يوسف : ٥٤.

(٢) الأنعام : ٩٨.

(٣) الأعراف : ١٩٨.

(٤) الزمر : ٦.

(٥) الروم : ٢١.

أفعالها، فيحصي أعمالها، قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [1]

خلق الإنسان، أو النفس، آية من آيات الله في الصنع والإنشاء، يدل على دقيق صنع الله، وعظيم قدرته، ولهذا يدعو القرآن إلى التأمل في خلق الإنسان، في غير ما آية من كتاب الله، مثل قوله تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [2].

فخلق الإنسان، في حد ذاته، آية من آيات الله في الخلق والتكوين: حواس بها يتصل بهذا الكون، ومشاعر، وأحاسيس، وعقل به يدرك المجرد والمحسوس، إنه عالم متحرك، كان يمكن للإنسان أن يؤمن بربه، عندما يتأمل في عجيب صنع نفسه.

لقد خلق الله في هذه النفس، الحياة والحركة والحس، وخلق الذكر والأنثى، وأنشأ بينهما المحبة والميل، لكون أحدهما خلق من الآخر، ولهذا يتكرر في مسألة خلق الناس، التذكير بأنهم خلقوا من نفس واحدة، في أكثر من آية، مثل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [3].

فقد خلق الله حواء على صورة آدم، ليسهل التقارب والتآلف والمودة، وبما أن الله خلق هذه النفس، وسواها في أعلى صورة، وأحسن تقويم، فهو عالم بما فيها، وعارف بحدودها، وما يعج فيها من أسرار، وما يحيط بها من غموض.

٢) قيمة النفس عند الله

ولمكانتها عند الله، حرم الله قتلها إلا بالحق، وسوى النفس الواحدة، بجميع النفوس البشرية، وذلك لبيان منزلة هذه النفس عند خالقها، وقتل النفس، جرم فظيع، نهى الله عن سفك دمها، أو التعرض لها بأذى، مهما كان نوعه، وفي آية النساء الآتية، نهى القرآن، عن أخذ مال الغير بطرق غير شرعية كالسرقة ونحوها، ثم ثنى بقتل النفس، لأن الحب المفرط للمال، يؤدي إلى القتل وسفك الماء، وأكبر دليل على

(١) الطارق: ٤.

(٢) الذاريات: ٢١.

(٣) النساء: ١.

ذلك، هذه الحروب التي تشن على الدول الضعيفة، لاستغلال مواردها الطبيعية، وللوصول إلى ذلك، بقتل الشيوخ والنساء والأطفال، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[1] .

وقد جاءت المحافظة على النفس في آيات كثيرة لا تخلو من تهديد ونهي شديد، وتفظيع لهذا الجرم الشنيع، وتوبيخ لكل من تعدى على حرمة النفس، إما بالقتل، أو التشريد، أو منع الغذاء والقوت عنها، ظلما واعتسافا، لأن النفس ملك لله رب العالمين، فهو المتصرف فيها بالموت والحياة، ولا يسمح لأحد، أن يشاركه في هذه الملكية، وقد جعل الله لهذه النفس طاقة ووسعا، وكلفها بأعمال تناسب هذه الطاقة والوسع.

٣) الوسع والكسب

تردد لفظ الوسع في القرآن ست مرات، وهذا التكرار الغاية منه ، التأكيد على أن الله لا يكلف عباده فوق طاقتهم، في النفقة والعبادة، وغيرهما مما يهم حياتهم، وهذا التكرار، لا يخلو من إضافة من حيث المعنى والأسلوب، كعادة القرآن في التكرار.

ونجد لفظ الكسب، الذي يعني « الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع أو دفع ضر »[2] ويرد في صيغة الماضي، أو المضارع، مع ضمير الغائبة، تسبقه لفظة النفس، ويسبق هذا التركيب وعد من الله، بأن تجازى النفس، حسب عملها، أو أكثر منه، إذا كان خيرا ، وتختم عادة بجملة حالية، فيها إشارة إلى العدالة الإلهية، مثل قوله تعالى :

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3] .

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[4] .

(١)النساء : ٢٩.

(٢)الجرجاني : التعريفات ص ١٤٤.

(٣)البقرة : ٢٨١.

(٤)الجاثية : ٢٢.

وإتيان القرآن بضمير الغائبة المفردة، في صيغة الفعل المضارع ، يعني أن الحساب يخص كل نفس على حدة، وهذا ما تؤكده الآية التالية : ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] .

ويلتجئ القرآن إلى التنويع عند تكرار المعنى، فيصبح فعل عمل، أو سعى، أو أسلف، عوض فعل كسب، ما دامت هذه الأفعال لها نفس المعنى تقريبا، قال تعالى:

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[2] .

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[3] .

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾[4] .

وهكذا يعلن القرآن شعار ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فإن عمل الإنسان بما أمر الله، وتجنب ما نهى عنه، كان من الفائزين، وإن عصى ربه، وغره الشيطان، كان من الخاسرين، وإذ ذاك فلا مفر له من العقاب، الذي يعترف هو نفسه بأنه عدل، وأنه يستحق هذا العقاب: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[5] .

فكل نفس تجازى حسب عملها، إما بالجنة أو بالنار، ولا يقدر هذا الجزاء إلا الله سبحانه وتعالى، لأنه أدرى بنوايا النفس، وما تنطوي عليه من خفايا وأسرار.

٤) النفس صندوق مغلق

هذه الأسرار، لا يطلع عليها إلا خالقها، فهي تظهر الشيء خلاف ما تعتقده، ولا يمكن الوصول إلى حقيقة ما تسره وتخفيه ، إلا بعد لأي، وحتى هذا الأمر المخفي في طوايا النفس، والذي يكشف عنه العلماء، بعد جمع القرائن وفحصها، هو

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) الزمر : ٧٠.

(٣) طه: ١٥.

(٤) يونس : ٣٠.

(٥) المدثر : ٣٨.

أمر نبي، ويبقى الله، هو العارف ببواطن النفوس وخفاياها، وقد قال الرسول في هذا السياق: نحن نحكم بالظواهر، والله يتولى السرائر، ولهذا يدعو المؤمن مرددا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾(١).

وبما أن الله قد خلق النفس، فهو يعلم ما تخفيه، والنفس المقصودة هنا، هي تلك القوى المفكرة العاقلة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾(٢).

ويكثر في مسألة إخفاء النفس، و ما لا تريد إظهاره للناس، أفعال مثل أبدى، وأسر، وعلم وقال، وقد يبدي الله للناس ما تخفيه النفس، إن كان في هذا الإبداء منفعة للناس، كزواج الرسول بالسيدة زينب بنت جحش، فقد كان الرسول، يخفي نيته في التزوج بها، في حين كان الله يريد إبطال عادة عند العرب، وهي عدم التزوج بزوجة المتبني، الذي يعتبر كأنه في مقام الابن، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يهدم هذه العادة من أساسها، فأظهر نية الرسول، في الزواج بزوجة متبنيه زيد بن حارثة لإبطال عادة جاهلية، قال تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾(٣).

أما يوسف،عليه السلام، فقد أسر في نفسه موقفه من إخوته، عندما رموه بالسرقة كذبا، وذلك للوصول بهم إلى الغاية، وهي معرفة يوسف فيما بعد قال تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾(٤).

وأما نصح يعقوب عليه السلام لأبنائه بالدخول إلى المدينة من أبواب متفرقة، فلم تغن عنهم هذه النصيحة شيئا ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ وهي شفقته على أبنائه، أن يصيبهم مكروه، وقد اتبع يعقوب تعاليم الله، وسننه الكونية، وهي الحذر والتوقي، والعمل بالأسباب.

(١)إبراهيم: ٣٨.
(٢)ق: ١٦.
(٣)الأحزاب: ٣٧.
(٤)يوسف: ٧٧.

والنفس هي موطن الخوف والرعب، فقد أشارت بعض الآيات إلى هذا المعنى، مثل قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ (1)

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ (2)

وكان المنافقون يخفون نفاقهم، ولا يبدونه للرسول وللمؤمنين، ولكن الله أبدى ما في صدورهم، وهو أنهم، كانوا يقولون : لو كان الأمر بأيديهم ، لما شاركوا في القتال، وما قتل منهم ما قتل، قال تعالى مظهرا نواياهم للرسول ولأصحابه: ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ﴾ (3)

وقد أظهر الله، أمر المنافقين للرسول، كعبد الله بن أبي وجماعته، الذين كانوا «يسارعون في مودة اليهود ونصارى نجران، لأنهم كانوا أهل ثروة، وكانوا يعينونهم على مهماتهم ويقرضونهم» (4) كما كانوا يشككون في الدين، ويوالون الرسول ، نفاقا وحسدا من عند أنفسهم، ولا يدرون أن الله ناصر دينه، ومشتت شمل أعدائه من المنافقين، ويهود بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير، وعند ذلك لا ينفعهم الندم، قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ (5)

وكان اليهود يكنون في أنفسهم عداوة للرسول وللمؤمنين، فكانوا إذا مر بالقرب منهم، يتناجون بينهم ويتغامزون، فنهاهم الله عن ذلك، فلم ينتهوا، ووصل بهم الأمر إلى تحية الرسول بالدعاء عليه، يقولون(السام عليك) والسام هو السم، فيرد عليهم الرسول بنفس التحية، فيقولون في أنفسهم: لو كان نبيا، لاستجاب الله

(1)الأعراف: 205.

(2)طه: 67

(3)آل عمران: 154.

(4)الرازي : التفسير ج3 ص414.

(5)المائدة: 52.

لدعائه عليهم بالموت، ونسوا أن عذاب الله يوم القيامة، هو أشد وأنكى من الموت نفسه، ومن يؤخر الله له العقوبة، فقد أراد به شرا، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(1) .

ولم يكن اليهود والمنافقون، مرضى القلوب فقط، وإنما الذين يكتمون الشهادة هم مرضى كذلك لأن كاتم الشهادة، يجعل صاحب الحق يفقد حقه، وسيحاسبون على هذا الكتمان حسابا عسيرا: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾(2) .

وكان الرسل والأنبياء، يرددون لأقوامهم، أن الله هو العالم بالغيب، والمطلع على خفايا النفوس، وقد خاطب نوح قومه بقوله : الله أعلم بما في نفوسكم، وهو أدرى ، بما في نفوس المؤمنين ، عند أدائهم للطاعات، هل هم يقومون بها في إخلاص وخشوع ، أو يؤدونها كسلا ورياء: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾(3) .

وتتردد في القرآن ثنائية الإيمان والكفر، وبالتالي تقسيم النفوس إلى نوعين : نفس مؤمنة بالله ورسله، وباليوم الآخر، وبالحساب ، والجنة، والنار، وقسم ظالم لنفسه، عصى ربه، وكذب برسله، وبالبعث، وبالحساب، والجنة، والنار.

٥) النفس المؤمنة

هذه النفس،هديت إلى الإيمان، بتوفيق من الله، ومشيئته ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(4) .

وقد استجاب الله لهذه النفس، لأنها لجأت إليه، وطمعت في هدايته ورعايته،

(١)المجادلة: ٨.

(٢)البقرة: ٢٨٤.

(٣)الإسراء: ٢٥

(٤)يونس: ١٠٠.

وآمنت بها جاءت به الرسل، من دعوة إلى الإيمان بالله ربا واحدا لا شريك له، والنفس هنا أما أن تؤمن، وإما أن تكفر بالله، وتجحد دعوة الأنبياء، وللإنسان كامل الحرية في أن يؤمن أو يكفر، لأن الرسول ليس بوكيل، يحفظ أمور الناس، وليس له قدرة على منع الناس من الكفر، أو حملهم على الإيمان، وإنما هو بشير ونذير، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [1].

فبعد نزول القرآن، يحمل حججا واضحة، وهداية إلى الطريق السوي، يمكن للنفس أن تتأمل فيه، فإن شاءت آمنت، وإن شاءت كفرت : لأن الرسول، ليس مطالبا بمراقبة أفعال الناس، على الأقل في مكة، وإنما هو مبلغ فقط: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [2].

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [3].

وترد في هذا السياق، ألفاظ مثل : أبصر، واهتدى، وشكر، وتزكى، ويقابلها عمي، وضل، وكفر، وتكون عادة الجمل شرطية ، تفيد حصر الإيمان في النفس، لا يتعداها إلى غيرها:

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [4].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [5].

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [6].

على النفس أن تؤمن بالله، وما جاء به الرسول ، بعد أن تبين لها ، أن الإيمان

(١) يونس: ١٠٨.
(٢) الأنعام: ١٠٤.
(٣) الإسراء: ١٥.
(٤) فاطر: ١٨.
(٥) الزمر: ٤١.
(٦) لقمان: ١٢.

حق، وهو السبيل الوحيدة للسعادة في الدنيا والآخرة، إذ به تستقيم النفس أولا، ثم سلامة المجتمع ثانيا، ولكن أكثر النفوس، لا ترعوي، فتضل وتعمى عن طريق الحق، ومن هنا كان تهديد القرآن ووعيده﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[1].

والنفس التي هداها الله للإيمان، تعمل بأوامر الله، وتتجنب نواهيه، فتعد العدة لملاقاته يوم الحساب، ونجد في القرآن الدعوة إلى التقوى، والإعداد للآخرة.

٦) النفس العاملة

نجد نوعين من الخطاب في الآيات التي ترد فيها لفظة النفس: خطاب يتوجه به القرآن إلى النفس في الدنيا، وخطاب يتوجه به إلى النفس في الآخرة، أما مخاطبة النفس في الدنيا، فيتعلق بدعوتها إلى الإيمان والتقوى، والعمل الصالح، والتذكير باليوم الآخر: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[2].

وتكثر في هذه الآيات الأفعال التي تدل على العمل، والحركة الظاهرية والنفسية، فبالإضافة إلى التقوى التي هي جواز العبور إلى الجنة، نجد مثل هذه الأفعال: قدم، وأنفق، وخاف، ونهى، وعمل، وأحسن، وأساء، كما في الآيات التالية:

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾[3].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[4].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[5].

---

(١) السجدة: ١٣.

(٢) البقرة: ٤٨.

(٣) فصلت: ٤٦

(٤) الإسراء: ٧

(٥) الحشر: ١٨.

وتتراوح لهجة الخطاب بين الترغيب والترهيب، حسب أصناف المخاطبين، فإن كانوا مشركين اشتدت اللهجة وقوي التهديد، لأنهم لم يصدقوا بالرسول، وبما أنزل عليه من قرآن حسدا وجحودا، وهذا الجحود مآل صاحبه نار جهنم، فبئس البيع، وبئست الصفقة: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(١) .

وإن كان الخطاب موجها إلى المؤمنين رق ولان، وحث على زيادة الخير، والعمل للآخرة﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾(٢) .

أما الخطاب الموجه إلى النفس في الآخرة، فيقابل فيه بين النفس التي آمنت، والنفس التي لم تؤمن بالرسول و بالقرآن، أو بين نفس سعيدة ونفس شقية، فالأولى تجد الخير محضرا، ويضاعف لها في عملها، ولا تعلم النفس المؤمنة ما أعد الله لها من نعيم باق، ورخاء لا يزول.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصلحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣)

النفس المؤمنة العاملة يوفى لها أجر عملها، لأن الحسنة بعشر أمثالها، ومن هنا يكثر في هذه الآيات فعل وفى وعمل وكسب، قال تعالى:

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٤) .

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٥) .

---

(١)البقرة: ٩٠.

(٢)البقرة: ١١٠.

(٣)السجدة: ١٧.

(٤)آل عمران: ٢٥.

(٥)الزمر: ٧٠.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2]

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[3]

وتود النفس المؤمنة أن لا ترى بعض الذنوب التي ارتكبتها في الدنيا، وتتمنى أن لو استزادت من أعمال الخير: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[4] .

أما النفس الشقية، فتود من جراء ما عملت من سوء، أن لا تلقى هذا العمل أبدا، الذي كانت تستلذه في الدنيا، وتتحسر على ارتكابها للذنوب والمعاصي، والإغضاء عن الرسل، والاستهزاء بما نزل عليهم من وحي، وتعتبر كل ذلك تفريطا في جنب الله، إذ في هذا اليوم تتكشف الحقيقة، التي كانت غائبة عنها في الدنيا، فالناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وعرفوا أن الله حق، وأن الرسل فعلا بعثوا من الله، وأن كتبهم حق، وأن الحساب والجنة والنار كلها صدق، لا يمكن إنكارها، قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[5] .

رؤية الحقائق، التي أعلنها الرسل على الملأ، ماثلة أمام الأعين، ولكن ماذا يفيد معرفة الحقيقة الآن، وهل ينفع الإيمان اليوم، لقد مضى زمن الفعل، والحرث في الدنيا، وجاء أوان الحصاد: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾[6]

يقود هذه النفس ملكان سائق، وهو كاتب السيئات، وشهيد، وهو كاتب

(١)البقرة: ٢٨١ ، وآل عمران: ١٦١ .

(٢)النحل: ١١١

(٣)آل عمران: ٣٠

(٤)آل عمران: ٣٠

(٥)الزمر: ٥٦

(٦)الأنعام: ١٥٨

الحسنات، وفي هذا اليوم العظيم لا يتكلم الإنسان بحجة، ولا بشفاعة، إلا أن يؤذن له في ذلك، ولا يهتم الإنسان إلا بنفسه، فإذا كان الأنبياء لا يهمهم إلا أنفسهم، ويرددون لمن يطلب منهم الشفاعة: نفسي نفسي، فما بالك ببقية الخلق:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾(١).

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾(٢).

يومها يجد الإنسان، ما قدم في الدنيا، مكتوبا مفصلا، فيقرأ كتابه، ويتذكر أعماله بحسناتها وسيئاتها، ويومها يسمعون الشيطان، يتفصى من أعمالهم، ويعترف بإغوائه لهم، وهذا الإغواء لا يلام هو عليه، وإنما يدعوهم إلى أن يلوموا أنفسهم، في هذا اليوم الذي لا ينفع فيه لوم ولا ندم، ولو كان نافعا لأحد، لنفع الشيطان نفسه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣).

وكذلك الكبراء، الذين اتبعهم الضعفاء من الناس، فخرجوا بأتباعهم عن طاعة الله، وطاعة رسله، ويوم القيامة لا ينفعهم الكبراء، ولا تلك الآلهة، التي عبدوها من دون الله، فيعترفون بأنهم أضروا بأنفسهم، ولم يطيعوا أوامر الله، ولم يجتنبوا ما نهى الله عنه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾(٤).

أما السعيد فالله عنه راض، إذ يقربه إليه، وذلك هو الفوز العظيم

والله سبحانه وتعالى، لا يظلم الناس، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وهذا

---

(١) النحل: ١١١.

(٢) الانفطار: ١٩.

(٣) إبراهيم: ٢٢.

(٤) الأحزاب: ٦٦، ٦٧.

أشقى ما يبتلى به الإنسان، إذ هو يظلم نفسه، ويؤدي بها إلى الهلاك، وتتردد في القرآن كلمة الظلم: أي ظلم الإنسان لنفسه في صيغة الفعل والمصدر.

٧) النفس الظالمة

كيف تكون النفس ظالمة، وتظلم صاحبها بالذات ؟

يكون الظلم في العادة ضد الغير، وهو في اللغة، وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة « عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل »[١] ويمكن أن نقسم الظلم إلى ثلاثة أنواع :

١) ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، وقد ذكر هذا النوع في القرآن بكثرة مثل قوله تعالى:

﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٢] .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[٣] .

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾[٤] .

٢) ظلم بين الإنسان وبين الناس، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾[٥] .

٣) ظلم بين الإنسان وبين نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾[٦] .

(١) السيد الجرجاني : كتاب التعريفات ص ١٤٤.

(٢) لقمان: ١٣.

(٣) الأنعام: ٣٣.

(٤) البقرة: ٥٩.

(٥) الشورى: ٤٢.

(٦) فاطر: ٣٢.

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(1) .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾(2) .

والنوع الأخير من الظلم هو الذي يهمنا هنا، فقد وردت آيات كثيرة تتعلق بظلم الإنسان لنفسه، أما كيف يظلم الإنسان نفسه ، فقد حدد القرآن هذا الظلم في هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾(3) .

فإذا تخطى الإنسان هذا الحد، فهو ظالم لنفسه، سواء أكان بالكفر أم بالنفاق، أو بارتكاب ما حرم الله، كالزنى والسرقة، وكذلك إيذاء المرأة ، والإضرار بحقوقها، فتترك بعد العدة تنتظر تسريحها:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾(4) .

أي : عرض نفسه لعقاب الله، وتعديه على حقوق المرأة، هو في حد ذاته تعريض النفس للعقاب.

وأكثر من ذلك جرما، الكفر بالله ورسله، يتمثل ذلك في تكذيب الأنبياء، والإقبال على عبادة الأصنام والأوثان، وكل هؤلاء الأقوام ، كثمود، وعاد وقوم فرعون، ظلموا أنفسهم أي : كفروا بالله، وهذا الكفر مضرة شنيعة لهم، وتتمثل الشناعة في تكذيب الرسل، وإلحاق الأذى بهم ، وإرسال الرسل هو حجة عليهم، ليكون عذابهم فيما بعد مشروعا، وعند ذلك يتفطن الذين ظلموا أو كفروا ولا فرق، إلى ضلالهم وطغيانهم، ولا تفيدهم التوبة،أو الشعور بخطئهم عندئذ:
﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ

(1)النمل: 44.

(2)النساء:64.

(3)الطلاق:1.

(4)البقرة: 231.

وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾[1] .

ولكن القانون الإلهي لا رجوع فيه، وعند ذلك يفكر الإنسان في الخلاص من هذا العذاب، الذي هو قاب قوسين أو أدنى منه، ولكنه لا يستطيع النجاة منه، فلو كان له ملء الأرض ذهبا وذخائر نفيسة ، ليفتدي بها نفسه، لما تسنى له ذلك، فيلقى في النار، خالدا فيها جزاء جحوده، وتكذيبه برسالات الأنبياء: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾[2] .

وتوالت الآيات القرآنية، الدالة على أن الإنسان، عندما يكفر، أو يجحد خالقه، فإن ذلك يهمه هو فقط ، ولا يتعدى غيره، فالله في غنى عنه، وعن ظلمه وكفره، ونجد مثل هذه الآية ، تتكرر مع بعض التغيير، على عادة القرآن ، في التكرار والإعادة:

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[3] .

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[4] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[5] .

أما بالنسبة لظالمي أنفسهم من المؤمنين، فهنا الظلم، يتعلق بارتكاب المعاصي والذنوب، التي تعود مضرتها على الإنسان وحده، ولا تتعداه إلى غيره، فإن تجاوزته إلى غيره، فيمكن أن يطلب العفو من المظلوم، أو يستغفر الله، وعندها يجد القبول الحسن : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[6] .

(١)إبراهيم: ٤٤.
(٢)يونس: ٥٤.
(٣)البقرة: ٥٧.
(٤)التوبة: ٧٠.
(٥)يونس: ٤٤.
(٦)النساء: ١١٠.

وينقسم الناس في القرآن إلى محسنين إلى أنفسهم، وهم الذين جنبوها غضب الله، وعقابه ومقته، وظالمين لأنفسهم، وهم الذين كذبوا الأنبياء، أو حرفوا رسالاتهم، وبدلوها إرضاء لأهوائهم، ففتنوا الناس، وأضلوهم، فهؤلاء ظلموا أنفسهم، فكانوا من الخاسرين.

وللظلم في القرآن درجتان، إحداهما هي : الكفر بالله ورسله، والتوبة من ذلك، تكون في شريعة بني إسرائيل بقتل النفس، كما فعل موسى مع قومه، الذين عبدوا العجل في غيابه، فأمرهم بقتل أنفسهم، حتى يتوب الله عليهم، عن علي قال: قالوا لموسى ما توبتنا، قال : يقتل بعضكم بعضا، فأخذوا السكاكين، فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه، لا يبالي من قتل، حتى قتل منهم سبعون ألفا، فأوحى الله لموسى: مرهم فليرفعوا أيديهم، وقد غفر لمن قتل، وتيب على من بقي: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

أما الدرجة الثانية من الظلم، فتتعلق بارتكاب المعاصي والذنوب، التي قد تكون كبيرة كالزنى والقتل، وقد تكون أصغر من ذلك، كالنظرة والقبلة واللمسة.

والتوبة من هذه الذنوب، لا تكون إلا بالاستغفار، والإقلاع نهائيا عن ارتكاب تلك المعاصي والذنوب، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

وهكذا ، فإن الإنسان يظلم نفسه أو غيره، ولكنه لا يظلم بفعله ربه، لأن الله فوق ظلم الناس، ولا طاقة لهم بظلمه، وإذا كان الإنسان، يظلم نفسه بارتكاب المعاصي والذنوب، والخروج عن طاعة الله ، فإن الله لا يظلم أحدا، وقد تكرر الوعد الحاسم من الله ، بأنه لا يظلم أحدا، بل إن الله يوفي أجور العاملين،

(١)البقرة: ٥٤.

(٢)آل عمران: ١٣٥.

ويضاعفها لهم، وقد أشار الحديث الشريف إلى أن الحسنة بعشر أمثالها ترغيبا في العمل الصالح الذي يفيد النفس، كما يفيد الغير.

ويمكن تصنيف الآيات التي تعلن أن الله لا يظلم أحدا من خلقه إلى:

١) آيات تقر مبدأ العدل الإلهي يوم القيامة، وفي هذا اليوم لا ينفع الإنسان إلا ميزان حسناته، وما قدم في الدنيا، وتعبر الآيات التالية عن عدل الله وإنصافه:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[١] .

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢] .

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾[٣] .

وقد جاء في الحديث القدسي: « يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال ، إلا من هديته، فاستهدوني ، أهدكم »[٤] .

٢)آيات فيها مجازاة للعاملين، ومضاعفة أجورهم، مع تذييلها بنفي الظلم عن الله سبحانه وتعالى من مثل:

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٥] .

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٦] .

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٧] .

(١)غافر:١٧.
(٢)يس: ٥٤.
(٣)الأنبياء: ٤٧.
(٤)رواه مسلم.
(٥)البقرة:٢٨١.
(٦)آل عمران : ٥٧.
(٧)الجاثية : ٢٢.

٣)آيات فيها مقابلة، بين ظلم الناس لأنفسهم، وعدل الله في محاسبته لهم، ويكون ظلم الناس لأنفسهم عادة تذييلا للآية ، من مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) .

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢) .

وفي كل هذه الآيات، يكون ظلم النفس، وعدل الله خاتمة أو نهاية للآيات، وتكون فاصلتها النون، وبعضها يكرر بحروفه، للتأكيد والجزم، وبعضها الآخر يعاد مع إضافة جديدة، قصد التنويع، مثل قوله تعالى:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾(٣) .

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤) .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٥) .

ويبدأ بعض أجزاء الآيات بالنفي، وبعضها يكون النفي في آخرها ، من مثل قوله تعالى:

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٦) .

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٧) .

«وهذا التخالف، يقصد لتلوين المعاني المعادة، حتى لا تخلو إعادتها عن تجدد معنى، وتغاير أسلوب، فلا تكون إعادتها مجرد تذكير» (٨) .

---

(١)يونس: ٤٤.

(٢)آل عمران:١١٧.

(٣)هود: ١٠١.

(٤)النحل: ٣٣.

(٥)العنكبوت: ٤٠.

(٦)التوبة: ٧٠.

(٧)آل عمران: ١٦١.

(٨)الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ج ١ ص ١١٨(المقدمة العاشرة).

٨)الخسران المبين

ورد فعل خسر في القرآن أكثر من مرة، والذي يهمنا هو اقتران هذا الفعل بالنفس، ويعني بالخسران فقدان الأمل، ويقابله الربح، وهو الذي يتأتى عن العمل، بما جاء في القرآن والسنة، وترك منهياتها، ولئن كان في لفظ الخسارة معنيان هما : الخسارة في المال، والخسارة في الإيمان، وهما متلازمان فإن « كل خسران ذكره الله تعالى في القرآن (هو الذي يخص) المقتنيات النفسية، كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين »[(١)]

ونلاحظ اقتران خسران النفس بعدم الإيمان في القرآن، فالذين خسروا أنفسهم أي : عذاب الله لها، لا يؤمنون بالله ولا برسوله، والبعض منهم على علم بنزول القرآن على الرسول، ولكنهم لم يؤمنوا به، وجحدوا نبوته، هؤلاء عرضوا أنفسهم للعقاب الذي لا يرد، لأنهم كذبوا الرسول وجحدوا نبوته: ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[(٢)]

لقد شرح القرآن للمكذبين والجاحدين من المغضوب عليهم والضالين، العذاب الذي يستحقونه، ولكنهم لم يتعظوا، وأصروا على الكفر، وهم ينتظرون يوم القيامة، ليروا الوعد الصادق، وعندها ، ينتبهون إلى الخطأ الفادح، الذي ارتكبوه، فيطلبون العفو، أو يردون إلى الدنيا للأيمان بما جاء به الرسول، من دعوة حق، فيها نجاة للعباد، منْ عذاب يوم عظيم فيعملوا بها، ولكن هيهات، هؤلاء: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[(٣)]

لم يبق بأيديهم إلا الخسران، ولم تنفعهم الآلهة، التي كانوا يدعون، أنها ستشفع لهم، وتقربهم إلى الله، وتنجيهم من عذابه، وهذه الآلهة ـ كما يعرف أطفالنا اليوم ـ

(١)نفس المرجع.
(٢)الأعراف: ٩.
(٣)الأعراف: ٥٣.

لا تعقل، ولا تنفع، ولا تضر:

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (٢) .

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (٣) .

ويقابل القرآن ، بين من ثقلت موازينه بالإيمان والعمل الصالح، وبين من خفت موازينه من الحسنات، وثقلت بالآثام والذنوب: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ (٤) .

ويعمد القرآن إلى تقريع هؤلاء الجاحدين، وتهديدهم بخسران أنفسهم، إذا عبدوا غير الله الواحد القهار، فقد عرضوا أنفسهم للعذاب، فتراهم يوم القيامة في ذلة وهوان، يسترقون النظر من طرف خفي، من شدة الخوف، ولهم أن يخافوا، ويظهر عليهم والهوان ، لأن تجارتهم في الدنيا كانت خاسرة، فجروا أنفسهم إلى الخزي والذل، لأنهم لم ينصروا أنفسهم، ولم يمنعوها من عذاب الله، ونصر النفس يكون بالإيمان بالله واحدا لا شريك له، وبالإسلام دينا، وبمحمد الخاتم رسولا، وتجنب ما نهى الله عنه، والعمل بما أمر به، من عبادة، ونفع للنفس وللناس، فنصرة النفس، لا تكون إلا بطاعة الله، أما عبادة الآلهة، والتقرب إليها، فلا يجدي نفعا، ولا يجد فيها المشرك عونا، أو ناصرا، ولا تمنع عن نفسه غضب الله وعقابه، إنها لا تمنع عن نفسها العذاب، فكيف تمنعه عن الغير: ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الزمر: ٤٣.

(٢) يونس: ١٨.

(٣) الزمر: ٣.

(٤) المؤمنون: ١٠٣.

(٥) الأنبياء: ٤٣.

وبعد فإن سعادة الإنسان في الدارين، منوطة بانتصاره على نفسه، هذه القوة التي تدفعه إما إلى الجحيم والعذاب، وإما إلى الجنة والنعيم، فإن شاء الإنسان ، جعل منها صديقا ونصيرا، وإن شاء، جعل منها عدوا لدودا، والسعيد ، أو الفائز، هو الذي يوفق بين متطلبات النفس المادية في دائرة المشروع والحلال الطيب، وبين متطلباتها الروحية، التي تصقل النفس، وترفعها إلى درجة الإنسان، وتنأى بها عن منزلة الحيوان.

وللنفس كما أشرنا أعلاه أبعاد مختلفة، تتحول إلى نفوس متصارعة أحيانا، وقد تكون متآلفة، أو متفقة أحيانا أخرى، ومدار اتفاقها، أو اختلافها، هو العقل، فهو الذي يحكم بالعدل، بين هذه النفوس المتنافرة، فيرضي هذه، ويسكت الأخرى، ولا يكون حكمه إلا منصفا، فإن استطاع العقل قيادة هذه النفوس، فقد سلم الإنسان ، ونجح في دنياه وآخرته، وإن كان ضعيفا أمامها ، فقد فشل وخاب.

وللنفس في القرآن ثلاثة أبعاد هي:

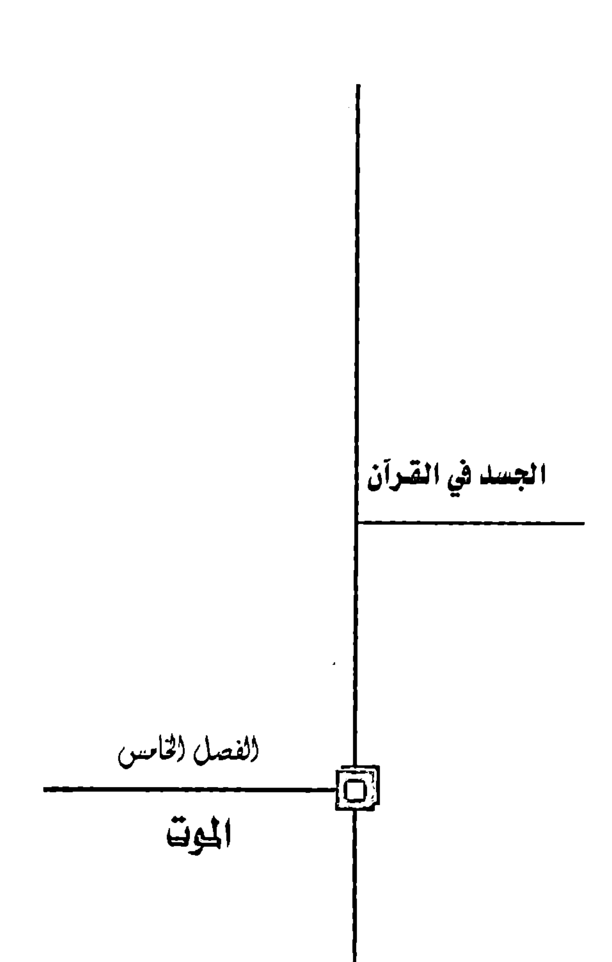
١) النفس الأمارة، وهي التي تميل إلى الطبيعة البدنية ، وتأمر باللذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهي مأوى الشرور، ومنبع الأخلاق الذميمة.

٢) النفس اللوامة: هي التي تنورت بنور القلب، قدر ما تنبهت به عن سنة الغفلة، كلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية، أخذت تلوم نفسها وتتوب عنها.

٣)النفس المطمئنة: هي التي تم نورها بنور القلب، حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة، وتخلقت بالأخلاق الحميدة[1]

هذا الجسم بأبعاده المختلفة أي : الجسمية والعقلية والروحية، معرض للهلاك والدمار، في أية لحظة، وهذا الدمار، هو المعبر عنه بالموت .

(١)السيد الجرجاني : كتاب التعريفات ص ٢٤٣.


الجسد في القرآن
الفصل الخامس
الموت

مكونات الجسم من أعضاء وغيرها، تصاب بالانخرام، فيتحول الجسم إلى كتلة من اللحم هامدة وساكنة، وكان من قبل تسري فيه الحياة والحركة، وهي المعبر عنها بالروح، والروح لا تفارق الجسد، إلا عندما يختل عمل الأعضاء، ويضطرب نشاطها، وللموت أنواع: منها الموت الأبيض، وهو الموت الطبيعي، أو الموت فجأة، والموت الأسود، وهو الموت خنقا، والموت الأحمر، وهو الموت قتلا، وقد يكون الموت ناتجا عن الغرق، أو السقوط من أعلى، أو نتيجة زلزال شديد، أو في حادث سيارة، وتتعدد الأسباب، والموت واحد، فالإنسان يجهل الطريقة التي سيموت بها، كما يجهل المكان والزمان الذي ستكون فيه آخر لحظات حياته، وهذا من رحمة الله بعباده، قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[1] وقال أيضا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾[2]

ومن طبيعة الإنسان أنه ينسى الموت، ولا يفكر فيه، إلا إذا رأى جنازة مارة، بالقرب منه، عند ذلك يفكر في هادم اللذات، ويعلن من أعماق قلبه: إنا لله وإنا إليه راجعون، وأن الموت حق علينا، وأنه مصير كل شيء حي، وبما أن الإنسان ينسى الموت، فقد جاءت الأديان لتذكر الإنسان بهذا المصير المحتوم، ومنها الإسلام، والقرآن والحديث حافلان بالدعوة إلى تذكر الموت، فقد جاء في القرآن: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[3].

وقد تكررت هذه الآية في سور أخرى[4] ولا يمكن للإنسان أن يهرب من هذا المصير ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[5] أو قوله تعالى ﴿قُل لَّن

(١)النساء: ٧٨.

(٢)لقمان: ٣٤.

(٣)آل عمران: ١٨٥.

(٤)الأنبياء: ٣٥ والعنكبوت: ٥٧

(٥)آل عمران: ١٦٨.

﴿يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ [1] ولا يدري الإنسان متى يلاقي مصيره ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [2] ونقول نحن: إن الموت اختلال وانخرام في أعضاء الجسم، أما في الواقع فإن ملك الموت،هو الذي يقبض الأرواح ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [3].

والواقع كذلك أن الله هو الذي يحيي وهو﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [4] ويسمي القرآن الموت في الدنيا، بالموتة الأولى، فأصحاب الجنة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [5].

أي لا يموتون فيها أبدا، أما الموتة الأولى فقد وقعت في الدنيا وانتهى أمرها «بخلاف الكفار الذين قالوا إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين، فإنهم يلقون من العذاب ما هو أشد من الموت» [6].

ومن أحاديث الرسول في هذا الباب «أكثروا من ذكر هادم اللذات» [7] يعني الموت، وعن عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فقلت: يا رسول الله، أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت، قال «ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه» [8].

(١)الأحزاب: ١٦.

(٢)الجمعة: ٨.

(٣)السجدة: ١١.

(٤)الملك: ٢.

(٥)الدخان: ٥٦.

(٦)الأشقر: زبدة التفسير ص ٦٦٠.

(٧)رواه الترمذي.

(٨)رواه مسلم.

هل الموت هو نهاية المطاف بالنسبة للإنسان ؟ هل تنتهي حياة الإنسان بانتهاء حياته في الدنيا؟ لقد ولد، ثم أصبح طفلا، فشابا، فكهلا، فشيخا ، وفي أثناء هذه الحياة تزوج وأنجب الأطفال، وذاق حلو الحياة ومرها، فماذا يريد بعد ذلك ؟ هل يعقل أن ينسى أمر الإنسان بموته، وبذلك ينتهي كل شيء ؟

هذا الأمر لا يصدقه أحد، فلا بد أن تكون حياة أخرى بعد هذه الحياة، يكون فيها الثواب للمحسن، والعقاب للمسيء، وعقيدة البعث هذه آمنت بها الشعوب البدائية، التي لم تبلغها الأديان السماوية، ففي قبورهم أواني وضعت قرب رأس الميت، الغرض منها أن يستعين بها عند قيامه من قبره، وقد أكدت الأديان عقيدة البعث، فالقرآن، مثلا، أكد على هذه العقيدة، وخصص لها الكثير من آياته، وبرهن بها لا يدع مجالا للشك وقوعها، ومعنى ذلك أن حياة الإنسان ستواصل بعد الموت، وستكون حياة أبدية، وصفها القرآن بأنها هي الحياة الكاملة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [1] ونبه الأنبياء والصالحون أقوامهم إلى زيف الحياة الدنيا، وأنها لعب ولهو، تغر الإنسان، وتدفعه إلى المهالك ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [2] .

ومن سار وراء الأنبياء، وعمل بما جاؤوا به، فقد فاز ونجح في الامتحان ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [3] .

دعك مما يقوله المنكرون للبعث، والذين يرددون ما قاله الدهريون منذ أقدم العصور: أرحام تدفع وأرض تبلع، ولا شيء بعد ذلك.

بعث الإنسان جسدا وروحا

ولو تفطنوا لعلموا أن تطلع الإنسان إلى عالم آخر، غير هذا العالم، هو مطلب

(١) العنكبوت : ٦٤.

(٢) غافر: ٣٩.

(٣) النحل : ٦٧.

إنساني، وجد لدى الإنسان،منذ عرف لهذا الإنسان تاريخ وآثار وعمران، فهل يعود هذا التطلع إلى رغبته الأكيدة في تعويض دنياه بعالم آخر، لا يواجه فيه الإخفاق والنكبات والظلم؟

يرى بعض العلماء« أن عقيدة الآخرة اخترعتها عقلية الإنسان الباحثة عن عالم آخر مليء بالأفراح»[1] ويرى آخرون أن الدنيا التي نعيش فيها لا يلقى فيها الظالم جزاءه، كما أنها لا تخلو من تعسف وإجحاف وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

« إن عالما من هذا القبيل إعلان في حد ذاته عن أنه ناقص، وهذا النقص في ذاته يقتضي من يكمله»[2].

والرأي الثاني مستمد من القرآن الذي يؤكد أن عالم الآخرة يلبي حاجة الإنسان في تصور عالم مريح، لا يلاقي فيه عناء أو مشقة بالنسبة للمؤمنين، ويعتبر عقيدة البعث منظومة جوهرية، ومحورا أساسيا عليه تقوم العقيدة، وبغيابه يختل الإيمان، وينخرم أساسه، فالإنسان ـ حسب القرآن ـ وجد في الدنيا ليعمل للآخرة، فالدنيا قنطرة عبور ليوم البعث، والإنسان في حياته عابر سبيل، غايته الآخرة، وهدفه يوم الحساب.

وبعث الناس بعد الموت قضية شائكة، حيرت الفلاسفة والمفكرين، ولم يتفقوا على أمر واضح في هذا الموضوع، ونذكر على سبيل المثال رأيين أحدهما قديم لبعض الفلاسفة، والآخر حديث، وهو للفيلسوف البريطاني روسل يرى بعض الفلاسفة أنه يوجب على العامة أن يعتقدوا في البعث بالروح والجسد معا، لأن هذا الاعتقاد مما اتفقت عليه جميع الشرائع على التصريح به، ولكن الخاصة يعتقدون خلاف ذلك: أي أن المعاد يكون بالروح فقط، ويصل الأمر بأحد الفلاسفة في آخر المطاف إلى إنكار البعث بالروح والجسد معا[3] .

(١)وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى التراجم العربية لظفر الدين خان ط٢ (د ـ م)١٩٧٣ ص ٩١.

(٢)نفس المرجع ص ٩٧.

(٣)انظر يوحنا قمير: ابن رشد ط بيروت ١٩٥٣ص١٦ و٢'.

وكان روسل أكثر صراحة عندما أكد أن لا حياة بعد الموت، يقول: والإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف، إن بدأه ونشوءه وأمانيه ومخاوفه وحبه وعقائده كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة، والقبر ينهي حياة الإنسان، ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى[1].

ويرد القرآن على روسل وأضرابه في كثير من سوره وآياته، مبينا بصورة لا تدعو إلى الشك أن البعث أمر حتمي، وأنه آت لا ريب فيه، وأن إحياء الموتى وخروجهم من قبورهم قضية مسلمة في القرآن، ولا تحتاج إلى تأويل أو لف ودوران، والقرآن يذكر صنفين من الناس تجاه البعث، صنف مؤمن به، ومصدق بما أخبرت به الأنبياء، وخاصة النبي الخاتم محمد ﷺ، وإما مكذب بالبعث ساخرا من وقوعه، وهازئا بالرسل الذين اخبروا عن الحياة بعد الموت، وهم الملاحدة والدهريون.

متى يقع البعث؟

متى يقع البعث؟ أمر لا يعلمه إلا الله وحده، فهو من أمور الغيب التي تفرد الله بعلمها، ولا يشاركه في هذا العلم أحد، قال تعالى:

- ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

- ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[3].

فلحظة خروج الناس من قبورهم غيب استأثر الله بعلمه، إلا أن القرآن ذكر بعض العلامات عند اقتراب الساعة، منها خروج دابة تكلم الناس، وتخبرهم أن فلانا مؤمن

(١) ذكره وحيد الدين خان في المرجع المذكور ص٤١.

(٢) الأعراف: ١٨٧

(٣) النمل: ٦٥.

وفلانا كافر، روى مسلم عن ابن عمر أن الرسول ﷺ قال:«إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى» قال تعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (١)

ومن علامات اقتراب الساعة خروج يأجوج ومأجوج، وهم مخلوقات لا يعرف كنههم إلا الله، أو يعرف كيفيتهم وكيفية الدابة من يحضر ظهور هذين العلامتين، وتبدأ الساعة فجأة، وفي سرعة فائقة، قال تعالى ذكره:

- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ (٢).
- ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٣).
- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤).

وتقع في لحظات، شبهها القرآن بلمح البصر، أو أقرب، ولمح البصر هو إغماض العين وفتحها، دلالة على سرعة وقوعها، فالله قادر على كل شيء، إذ يقول للشيء كن فيكون، قال تعالى:

ـــ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥).

وقد ورد في الحديث الصحيح علامات لم يرد ذكرها في القرآن. منها أنه يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنى، ويقل الرجال ويكثر النساء، وتندر الأمانة، وتضطرب موازين المجتمع، فيرتفع المنخفض، وينزل العالي، ثم يكون ظهور الدجال، ونزول عيسى ناصرا لشريعة خاتم الرسل محمد ﷺ (٦)

---

(١)النمل: ٨٢.

(٢)الأنعام: ٣١.

(٣)يوسف: ١٠٧.

(٤)الزخرف:٦٦.

(٥)النحل:٧٧.

(٦)ذكره علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الإسلام ط ١٠ مؤسسة الرسالة ١٤٩١/ ١٩٨١ ص١٢٣.

ويحسن بنا قبل الدخول في خضم هذا الموضوع، التعرض ولو بإيجاز للمعجم الخاص بالبعث، ونشير منذ البدء إلى ثراء هذا المعجم، وامتداده في كامل سور القرآن تقريبا، لأن قضية البعث محورية وجوهرية في المنظومة العقدية لدين الإسلام.

وللبعث في القرآن أسماء كثيرة منها يوم القيامة، وتوجد سورة تحمل هذا الاسم، والآخرة والحاقة(اسم سورة) والساعة والواقعة(اسم سورة) والصاخة والقارعة(اسم سورة) والحشر(اسم سورة) والتغابن، ويوم الخروج ، هذا بالإضافة إلى مثل هذه الأفعال بجميع صيغها ومشتقاتها: حشر وخرج وعاد ورجع وبعث وغيرها مما يطول ذكره.

يتناول القرآن مسألة البعث بطرق مختلفة، حسب أصناف المخاطبين، فإن آمنوا بما جاءت به الرسل، وما جاء في كتبهم من أن البعث قضية مسلمة، ولا يصح إيمان المرء بدونها جاءت الآيات مقررة ومؤكدة سهولة البعث ووقوعه، وقد يتلطف بعض المؤمنين، وهم من الرسل (إبراهيم وعزير) فيطلبون من الله أن يريهم بالمشاهدة العينية كيف يحيي الله الموتى، وفي مجموعة أخرى من الآيات يسفه عقول المشركين والمكذبين بالبعث، مبينا لهم بالحجة والدليل أن البعث أمر قائم لا محالة، وأن من ينكر وقوعه لا يلومن إلا نفسه، وسنتناول هذه المجموعات من الآيات الخاصة بالبعث فيما بعد، ونعني بالبعث لحظة خروج الناس من قبورهم بأجسامهم وأرواحهم كما كانوا في الدنيا، أما الحساب، ووقوف الناس في المحشر، ينتظرون حكم الله فيهم، ودخول البعض منهم إلى الجنة والبعض الآخر إلى النار، فتلك مرحلة أخرى، تستحق موضوعا خاصا بها.

***

البعث أمر ميسور على الله

هذا الموضوع الخطير الذي حير العقل البشري، ولم يصل فيه أساطين الفكر إلى

حل مقنع يتحدث عنه القرآن، وكأنه أمر واقعي، بل أشد واقعية وأكثر سهولة من أي أمر آخر، وهو أهون على الله من خلقنا في الحياة الدنيا، وتتبين سهولة البعث من خلال هذه الآيات التي تتعرض للبعث، وكأنه أمر طبيعي، وهذا حق، فالله لا يعجزه شيء، فإذا تعلقت إرادته بشيء يقول له كن فيكون، وفيما يلي بعض الآيات التي تخبرنا عن الموتى لحظة خروجهم من قبورهم:

ـ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[1].

ـ ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[2].

ـ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ[3] وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[4].

ـ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾[5].

ـ ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾[6].

ومما جعل هذا الموضوع ميسورا أمره لجوء القرآن إلى التشبيه والتمثيل، إذ يلجأ في آياته الخاصة بالحديث عن البعث والقيامة إلى تمثيل شيء بشيء، وصورة بصورة، والقرآن مليء بهذا التصوير والتمثيل والمقارنة بين أمرين، يظنهما المكذبون متباعدين، كما سنرى، ونبدأ برد القرآن على منكري إحياء الموتى وضربه للأمثال للرد على هؤلاء الجاحدين والمنكرين.

---

(١)يس: ٥١ ـ ٥٣.

(٢)المعارج:٤٣.

(٣)أي الأرض.

(٤)طـه : ٥٥.

(٥)ق: ٤٢.

(٦)غافر: ١٦.

المنكرون للبعث والرد عليهم

يذكر الواحدي في كتابه أسباب النزول أن أبي بن خلف جاء إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ـ أي بال ـ ففته بين يديه، وقال : يا محمد يبعث الله هذا بعدما رم، أي أصبح رميا باليا؟ فقال: نعم يبعث الله هذا، ويميتك ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم فنزلت هذه الآية[1] :

ـ ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ ﴾[2] .

واضح أن أبي بن خلف ينكر إحياء الموتى، كأغلب المشركين في الجزيرة العربية، وعامة المكذبين بالبعث في كل العصور، وقد نزل القرآن ليفند هذه الظاهرة، ويبطلها بالتمثيل بالتصوير، ليبين قدرة الله على الإحياء، وجمع ما تفرق من أجزاء جسم الإنسان في التراب، أو في البحر، أو في بطون الحيوانات، أو أكلته النار، فتحول إلى رماد، هذا الجمع يصعب على العقل البشري أن يقبله أو يصدقه.

وقد وقف عدي بن ربيعة هو الآخر موقف المكذب لإحياء الموتى، فقد أتى النبي ﷺ ، فقال: حدثني عن يوم القيامة متى يكون؟ وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ بأمر البعث، وأنه واقع لا محالة، فقال عدي: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به، أو يجمع الله العظام؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية:

ـ ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[3] .

فعدي حكم عقله ،ولم يحكم قلبه، والعقل إن حكمناه في هذه المسألة، وفي مسائل الغيب بصفة عامة، لا يصل إلى نتيجة تذكر، وقد سمعت وأنا صغير، قول أحد الجيران، كما قال عدي: من ذهب إلى القبر وعاد منه بخبر، فنحن نموت،

(١)الواحدي: أسباب نزول القرآن تحقيق ودراسة كمال بسيوني زغلول ط بيروت١٤١١ / ١٩٩١ ص ٣٩٩ وانظر السيوطي : لباب النقول في أسباب النزول ط تونس١٤٠١/ ١٩٨١.

(٢)يس: ٧٨.

(٣)القيامة: ٣ ، ٤ .

وبموتنا ينتهي كل شيء، وهذا هو ما يقوله الدهريون، كما يقول عنهم القرآن:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[1] .

فالحياة الدنيا هي وحدها التي يعيش فيها الدهريون، وليس وراء ذلك شيء، وقد اعترفوا بسطوة الدهر وجبروته، وعقب القرآن على رأيهم، بأنهم ما قالوا هذه المقالة إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة، وغاية ما عندهم هو الظن، والظن لا يغني من الحق شيئا، وسيكون موقف المكذبين بالبعث محور اهتمام كثير من آيات القرآن التي تعيد وتكرر نفس المعنى، ولكن بألفاظ مختلفة، على عادة القرآن في التكرار، مع تذييلها بالرد على المكذبين، فهم يتعجبون أن يبعث الله رسولا من البشر، وأعجب من ذلك أن يحدثهم عن خروج الناس من قبورهم أحياء كما كانوا في الدنيا، بعد أن فنيت أجسامهم، واختلطت بالتراب، ولم يبق لها من أثر، هذا أمر لا تصدقه العقول، قال تعالى على لسان المكذبين بالبعث والنشور: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[2]

فكيف يمكن لأجزاء الجسم التي تتفرق في التراب، وتنحل فيه، وتصبح جزءا منه أن تتجمع بعد ذلك، فيتكون منها الجسم ثم تبعث فيه الروح، كما كان في الحياة الدنيا، هذا غير ممكن عقلا﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي إعادة غير ممكنة التحقيق، وغير قابلة للتصديق .

ثم يقسمون ، ويبالغون في القسم تأكيدا منهم على أن البعث والإحياء مستحيل، وأن الله لا يبعث الموتى من قبورهم، فقد ماتوا وانتهى أمرهم، ولا يمكن لأية قوة ـ كما قال الفيلسوف البريطاني روسل ـ أن توقظهم من رقدتهم الأبدية:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[3] .

---

(١)الجاثية: ٢٤.

(٢)ق: ٣.

(٣)النحل: ٣٨.

رد القرآن مؤكدا على أن البعث والإحياء ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ أي لا يتخلف عن وعده، وهو أمر يسير عليه، وأهون عليه من الخلق الأول، فقد كان الإنسان نطفة ثم خلقة ثم مضغة ثم سواه إنسانا.

وكعادة كفار قريش، ومن كان على شاكلتهم، رموا الرسول بالسحر والشعوذة، لأنه ينشر بين الناس مثل هذه العقيدة، التي تقول بالبعث بعد الموت، فالبعث باطل كبطلان السحر، وهذيان كهذيان الساحر والمشعوذ ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾[(1)].

ويتوالى الإنكار من قبل المشركين، ويتوالى رد القرآن على المنكرين في لهجة لا تخلو من حسم وجزم، بأن البعث آت لا محالة ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾[(2)].

في الآية الأولى والثانية سخرية من الرسول الذي يقول للمنكرين ببعث أجسادهم وأجساد آبائهم، وكانوا يطلبون منه أن يحيي آباءهم وأجدادهم، إن كان نبيا حقا كما يقول، وفي بقية الآيات رد عليهم القرآن ساخرا ومحتقرا، كما سخروا هم من الرسول﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ أي صاغرون خاضعون أذلاء، ثم انتقل القرآن إلى كيفية البعث والنشور، مبينا أن المسألة سهلة بالنسبة إلى قدرة الله، عندما يعن له أن يقول للشيء كن فيكون﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ بهذه الزجرة يبدأ البعث، وهي صيحة واحدة من إسرافيل ينفخها في الصور﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ وسيرون بأم أعينهم ما يفعل بهم.

وتهتم مجموعة من الآيات بالاستدلال على وقوع البعث، وقد اعتمد في هذا الاستدلال على التمثيل والقياس، فقد قاس النشأة الثانية(البعث) على النشأة

(1)الرعد: ٧.

(2)الصافات: ١٦، ١٧ وانظر مثل هذه الآيات الواقعة: ٤٧ ــ ٥٠ والنمل: ٦٧ ــ ٦٨ والجن: ٧ والنحل: ٢٠، ٢١ والروم: ٥٦ وهو: ٧ والإسراء: ٤٩ وغيرها كثير.

الأولى(الحياة الدنيا) مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [1] وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2].

فالنشأة الأولى ابتدأها الله، وخلقها من ماء مهين، ثم ينشئ النشأة الثانية بالاعتماد على ما بدأه أولا، وذلك بإعادة الأرواح إلى الأجساد، فالنشأة الأولى بدأت بنطفة ـ كما رأينا في مقدمة هذا البحث ـ وقبل ذلك لم يكن شيئا، وتؤكد الآية التالية على سهولة البعث، بالمقارنة مع خلق الإنسان في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [3].

فجسم الإنسان قد حدد في الدنيا، واتضحت معالمه، فإن مات يبقى التخطيط العام لهيكل الجسم بلا روح، ثم يوم القيامة يبعث هذا الجسم، وتبعث فيه الروح من جديد، كما كان في الدنيا، ويحاسب على أعماله بذلك الجسم الذي كان في الدنيا، وقد وعد الله بالنشأة الآخرة، أو بالبعث في الكثير من الآيات، وأن وعده سيتحقق لا محالة، منها قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [4] وكذلك قوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [5].

خلق الإنسان في الدنيا(بدؤه) ثم بعثه في الآخرة (إعادته) أمر حتمي، والقرآن يكرر ويلح على هذا القانون الإلهي في كثير من السور، وعندما يخاطب المؤمنين يورد مسألة البعث مورد الإعلام والإخبار، مثل قوله تعالى﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [6] وقوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن

---

(١)يس: ٧٩.

(٢)العنكبوت: ٢٠.

(٣)الروم: ٢٧.

(٤)الأنبياء: ١٠٤.

(٥)الروم: ١١.

(٦)البقرة: ٥٦.

﴿فِي الْقُبُورِ﴾[1] وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[2].

فالخطاب في هذه الآيات وغيرها هادئ لأنه موجه إلى المؤمنين بالبعث والمطمئنين إلى وقوعه، فجاءت الآيات مخبرة ومؤكدة للمؤمنين، الذين اختاروا الإيمان، وتجنبوا الظن والتكذيب وصدقوا الأنبياء اللذين أخبروا الناس بأن البعث والقيامة أمر لا ريب فيه.

مقارنة بين عملية إخراج النبات وإخراج الموتى من قبورهم طرحت في صدر الآية الخامسة من سورة الحج إشكالية البعث والنشور، وجاءت هذه الإشكالية في قالب تركيب شرطي، ثم مرت إلى المثل المحسوس، وهو خلق الإنسان وإيجاده، وقارنته بالنبات، عند نزول المطر على بذوره، وقررت أن الله هو الموجود الباقي، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض الهامدة، وبرز منها مختلف النبات بأشكاله وألوانه التي تدخل البهجة إلى النفس.

وهكذا يلجأ القرآن إلى تقريب صورة البعث إلى الأذهان عن طريق ضرب الأمثلة المحسوسة التي تشاهد كل يوم، مما جعل الحديث عن البعث أمرا عاديا، وساعد على ذلك منهجية القرآن في الانتقال من عالم الشهادة(خلق الإنسان في الدنيا) إلى عالم الغيب.

ويؤكد القرآن في كثير من الآيات على ظاهرة الأنبات، ويقارنها بالبعث وإحياء الموت عن طريق قياس الغائب على الشاهد، ولكن العبارة تختلف من آية إلى أخرى، ومن سياق إلى آخر من مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

ويعني (بخاشعة) أي قاحلة يابسة، وهو معنى هامدة الواردة في سورة الحج

---

(١)الحج:٧.

(٢)

(٣)فصلت: ٣٩.

(الآية:٥) أي أنها تنتظر المطر، حتى تصبح تلك النباتات بارزة بالفعل، ثم يقارن الله بين قدرته على الإنبات وقدرته على إحياء الموتى(﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ ونجد آيات أخرى تهتم بما يرى ويلمس، من خلق الله للسماء والأرض والجبال والنبات، يقول تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[1]

يذيل الآيات السابقة بالإشارة السريعة﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي أن الخروج من القبور يوم القيامة أمر سهل بالنسبة إليه، فهو قد خلق السماء خلقا يدل على قدرة الله، وإحكام صنعه، وخلق الأرض، وما فوقها من جبال راسيات، وما أنشأ في هذه الأرض من نبات مختلف الأشكال والأحجام والألوان، ووفر له الماء والأملاح المعدنية، فإن كان له هذا الخلق وغيره، فهل يعجز عن إحياء الموتى الذي يشبه إحياء النبات في الأرض القاحلة، فكما أن الله قادر على إحياء الأرض الميتة، فهو قادر كذلك على إخراج الموتى من قبورهم، ومن هذا القبيل هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

تبرز هذه الآية النعم التي أسبغها الله على عباده، ومن أهمها الماء، وما ينتج عنه من ثمار مختلفة الألوان والطعوم، ولكن الذي يهم هو التشبيه﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أن إخراج الموتى من القبور يوم الحشر مشابه لإخراج الثمار، فإذا كان الله قادرا على إخراج الثمار على تلك الصورة، فما الذي يعجزه عن إحياء الموتى، وبعثهم من قبورهم يوم الخروج.

هكذا تلمس هذا الاقتران بين الواقع والمشاهد وبين المجرد والغيبي، حتى ليتحول المجرد أي الغيبي إلى واقع يقر الإنسان بسهولته، وإمكانية وقوعه.

---

(١)ق :٩ـ ١١.

(٢)الأعراف: ٥٧.

وقد ألح القرآن على هذه الثنائية(المشاهد والغيبي أو المحسوس والمجرد) في بعض الآيات الأخرى مثل قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[1].

ولئن كان النبات وبروزه فوق الأرض، بعد إن لم يكن، يشبه عملية خروج الموتى من قبورهم، فإن المشبه والمشبه به يمتزجان في بعض الآيات، ويصبح خروج النبات وخروج الموتى شيئا واحدا، كما في سورة نوح: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾[2].

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (أنبتكم من الأرض نباتا) أي أوجدكم من عناصرها، كما يوجد النبات، وتعني أيضا أنشأكم من تراب، وهو المعنى الذي يشير إليه البيضاوي عندما يقول: أنشأكم منها، فاستعير الإنبات للإنشاء، لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض، وأصله أنبتكم إنباتا فنبتم نباتا، فاختصر اكتفاء بالدلالة الالتزامية[3].

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ﴾ أي مقبورين ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ وقد أكد بالمفعول المطلق للرد على المنكرين للبعث، وقد يكون معناه إخراجا خاصا لغرابته، وقد رأى البيضاوي أن هذا التأكيد دلالة على أن الإعادة محققة، وأنها تكون لا محالة[4].

وتتكرر عملية إحياء النبات، ومقارنتها بإحياء الموتى في القرآن باستمرار، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

(١)الروم: ١٩، ٢٠.

(٢)نوح: ١٧، ١٨.

(٣)تفسير البيضاوي ط ٢ القاهرة ١٩٢٥ ص٧٦٢.

(٤)نفس المصدر.

مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[1].

وإذا ذكرت الرياح وبيان دورها في نزول الغيث، وإحياء الأرض بعد موتها، فلا بد عادة أن يذكر يوم الخروج الأكبر: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾[2] وكذلك: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3].

وقد يذكر إحياء موات الأرض، ولا يذكر إحياء الموتى، ولكن هذا الإحياء يفهم من سياق الآية كقوله تعالى: ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[4] أي يوقنون بالبعث، وعقولهم توقن بوقوعه.

إن أمثلة القرآن التي يراد بها تقريب بعث الأجساد يوم القيامة إلى الأذهان لا تقتصر على خلق الإنسان أولا، أو مقارنته بإحياء النبات، ولكنها تتعدى إلى ما هو أكبر من ذلك وأعظم، كخلق السماوات والكواكب التي لا حد لشساعتها، ولا يوجد أهم منها في مخلوقات الله، لنتأمل في هذه الآية: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[5]

بدئت هذه الآية باستفهام إنكاري، أي ينكر على المكذبين بالبعث اعتقادهم أن الله غير قادر على إحياء الموتى، وفيها مثال مشاهد يرى بالعين المجردة، ويصدقه

(١) فاطر: ٩.

(٢) الحجر: ٢٢، ٢٣.

(٣) الروم: ٤٨- ٥٠.

(٤) الجاثية: ٤، ٥.

(٥) الأحقاف: ٣٣.

العقل، ولهذا يدعو أول الآية إلى التفكر والتدبر في خلق السماوات من عدم، وهذا التفكر «من شأنه أن يفرض بالعقل إلى أن الله كامل القدرة على ما هو دون ذلك من إحياء الأموات»[1].

ونجد في سورة أخرى الجمع بين خلق السماوات والأرض من جهة، وإنبات النبات من جهة أخرى، ثم يستنتج القرآن من ذلك إحياء الموتى للمشابهة الموجودة بين قدرته تعالى المطلقة على خلق السماوات والأرض، والمماثلة بين إحيائه للنبات بعد سقيه، وإخراج الموتى من قبورهم أحياء، وهي النتيجة التي يريد أن يصل إليها القرآن، ويريد إثباتها من كلا المثالين، فقد جاء في سورة الزخرف قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[2].

﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي تبعثون من قبوركم أحياء، وكأن هذه النتيجة هي المقصودة، لأن المخاطبين، وهم كفار قريش وغيرهم، يعلمون أن خلق السماوات والأرض ونزول المطر كلها من خلق الله، ولكن البعث هو محل الشك والارتياب والتكذيب لدي بعض الناس.

لقد نوّع القرآن الاستدلال على البعث بشتى الطرق، كما رأينا، ومنها أيضا الاستدلال على البعث وإحياء الموتى المستمد من الواقع التاريخي المعيش، فقد تم إحياء الموتى أمام أعين الناس في العهود القديمة، وتواتر الحديث عن هذه الظاهرة في الكتب المنزلة ومنها القرآن، منها قتيل اليهود الذي أحياه الله ليقول من قتله في سورة البقرة[3] ومنها عزير الذي أماته الله ثم أحياه هو وحماره[4] ونومة أصحاب

(١)الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ٦٣.

(٢)الزخرف: ٩ ـ ١١.

(٣)انظر من الآية :٦٧ حتى ٧٣.

(٤)البقرة:٢٥٩.

الكهف التي دامت ثلاثة قرون بالتقويم الشمسي، وازدادوا تسعا بالتقويم القمري[1] ومشاهدة إبراهيم عليه السلام لإحياء الموتى ليطمئن قلبه[2] .

هكذا تسنى للقرآن أن يحول هذه الظاهرة التي استعصت على العقول من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وأصبحت لدى المسلمين من المعلوم من الدين بالضرورة، وكان موقف القرآن من منكري البعث هو التأنيب والتقريع، فللمكذبين أن يستبعدوا إحياء الموتى، ولهم الحرية المطلقة في التكذيب بالمعاد جسدا وروحا، ولهم أن يتحملوا بعد ذلك تبعات هذا التكذيب، وما يترتب عنه من مسؤولية، فإذا خرجوا من أجداثهم مسرعين، وكانوا يظنون أنهم كانوا نياما، يتفطنون إلى ما كانوا فيه من موت عندها يصرخون: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[3] .

يقولون ذلك في تحسر، بعد أن شاهدوا أهوال يوم القيامة، وتبين لهم أنهم كانوا على ضلال، وكانوا يتصورون أن كل ما قضوه في القبور، كان كرقدة النائم، أعني مدة وجيزة ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي هذا ما قاله الله لكم على لسان رسله، ولم تصدقوهم، ويجابون كذلك من قبل العلماء، وبعض الملائكة: إنكم لبثتم كما قدر الله وقضى إلى هذا اليوم ـ وهو يوم البعث ـ وكنتم لا تصدقون، بل تستعجلونه عنادا وتكذيبا وسخرية: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4] .

لقد كان المكذبون والمبطلون يظنون ظن السوء، إذ كانوا يعتقدون أن لا بعث، ولا إحياء بعد الموت﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾[5] .

(١)قال تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ (الكهف:٢٥).
(٢)البقرة: ١٦٠.
(٣)يس: ٥٢.
(٤)الروم:٥٦.
(٥)الجن: ٧

ويواجهون ربهم: فينكر عليهم كفرهم به، وتكذيبهم لأنبيائه الذين أكدوا لهم أن البعث آت لا ريب فيه، وتلخص الآية التالية الأطوار التي يمر بها الإنسان في الدنيا والآخرة، فقد كان الناس معدومين، ثم خلقهم في بطون أمهاتهم، ونفخ فيهم الروح، ثم أماتهم عند انقضاء أجلهم في الدنيا ، ثم يحييهم يوم القيامة، ثم يحشرون إليه للموقف والحساب، فيجازيهم على أعمالهم، ويتوجه إلى المكذبين ملك كريم قائلا: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

وتنكشف لهم الحقيقة، فيطلبون العودة إلى الدنيا، ليعملوا بما أمرهم به الله، على لسان رسله، ويتلافوا ما وقعوا فيه من شر مستطير: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[2].

ولكن هيهات لقد فات الأوان، وانتهى كل شيء.

والحمد لله أولا وأخرا

ذو الحجة ١٤٢٢ ومحرم ١٤٢٣هـ

فيفري/ مارس ٢٠٠٢

١) البقرة: ٢٨

٢) غافر: ١١

فهرس المحتوى